غرام الكبار

جبران خليل جبران

عشرون عامًا من غرام المراسلة

obeikan.com

obeikan.com

هل يمكن لرجُلٍ أن يشغل امرأة عشرون عاماً دون رؤية ؟!

أي سِحر في هذا الرجل الغامض الذي أسر مي زيادة كل هذه السنوات رغم وجود لطفي والعقاد

وطه حسين وإسماعيل صبري وثُلة من نجوم الفِكر والسياسة والدين من مشاهير في حياة مي زيادة ؟!

إنه غرام هاروت وماروت الذي ربط بين مي وجبران !!

هو نفث السِحر وسِحر النَفث بينهما !!

فمَنْ هو هذا الساحر الكبير ؟!

...

هو .. جبران خليل جبران بن ميخائيل بن سعد من أحفاد يوسف جبران الماروني البشعلاني شاعر لبناني أمريكي ولد في ٦ يناير ١٨٨٣ م في بلدة بشري شمال لبنان وتوفي في نيويورك ١٠ ابريل ١٩٣١ م بداء السل سافر مع أمه وإخوته إلى أمريكا عام١٨٩٥ فدرس فن التصوير وعاد إلى لبنان وبعد أربع سنوات قصد باريس لمدة ثلاث سنوات وهناك تعمق في فن التصوير. عاد إلى الولايات الأمريكية المتحدة مرة أخرى وتحديدا إلى نيويورك وأسس مع رفاقه «الرابطة القلمية» وكان رئيسها. جمعت بعض مقالاته في كتاب «البدائع والطرائف».

■ ■ ■

obeikan.com

المولد ورحلة الحياه

ولد هذا الفيلسوف والأديب والشاعر والرسام من أسرة صغيرة فقيرة في بلدة بشري في ٦ كانون الثاني ١٨٨٣. كان والده خليل جبران الزوج الثالث لوالدته كاملة رحمة التي كان لها ابن اسمه بطرس من زواج سابق ثم أنجبت جبران وشقيقتيه مريانا وسلطانة.

كان والده خليل سعد جبران الذي ينحدر من أسرة سورية الأصل يعمل راعياً للماشية ويمضي أوقاته في الشرب ولعب الورق. «كان صاحب مزاج متغطرس ولم يكن شخصاً محباً» كما يتذكر جبران الذي عانى من إغاظته وعدم تفهمه. وكانت والدته «كاملة رحمة» من عائلة محترمة وذات خلفية دينية واستطاعت ان تعتني بها ماديا ومعنويا وعاطفيا.. وكانت قد تزوجت بخليل بعد وفاة زوجها الأول وإبطال زواجها الثاني. كانت شديدة السمرة ورقيقة وصاحبة صوت جميل ورثته عن أبيها.

لم يذهب جبران إلى المدرسة لأن والده لم يعط لهذا الأمر أهمية ولذلك كان يذهب من حين إلى آخر إلى كاهن البلدة الذي سرعان ما أدرك جديته وذكاءه فانفق الساعات في تعليمه الأبجدية والقراءة والكتابة مما فتح أمامه مجال المطالعة والتعرف إلى التاريخ والعلوم والآداب.

وبفضل أمه تعلم الصغير جبران العربية وتدرب على الرسم والموسيقى. ولما لاحظت ميل الرسم لديه زودته بألبوم صور لـ «ليوناردو دافنشي» الذي بقي معجباً به بصمت. بعد وقت طويل كتب يقول: «لم أر قط عملاً لليوناردو دافنشي إلاّ وانتاب أعماقي شعور بأن جزءاً من روحه تتسلل إلى روحي .

تركت أمه بصمات عميقة في شخصيته ولم يفته أن يشيد بها في «الأجنحة المتكسرة»: إن أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة «الأم» وأجمل مناداة هي «يا أمي». كلمة صغيرة كبيرة مملوءة بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة والحلاوة والعذوبة. الأم هي كل شيء في هذه الحياة هي التعزية في الحزن والرجاء في اليأس والقوة في الضعف هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران فالذي يفقد أمه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ويداً تباركه وعيناً تحرسه».

سنواته الأولى أمضاها جبران لا مبالياً رغم الشجارات بين والديه والسقوط من فوق ذلك المنحدر الذي ترك فيه التواء في الكتف. تتلمذ في العربية والسريانية على يد الأب «جرمانوس». وعلمه الأب «سمعان» القراءة والكتابة في مدرسة بشري الابتدائية. ويروي صديقه الكاتب «ميخائيل نعيمة» أن الصغير جبران كان يستخدم قطعة فحم ليخط بها رسومه الأولى على الجدران. ويحكى أنه طمر يوماً وكان عمره أربع سنوات ورقة في التراب وانتظر أن تنبت.

في العاشرة من عمره وقع جبران عن إحدى صخور وادي قاديشا وأصيب بكسر في كتفه اليسرى عانى منه طوال حياته.

لم يكف العائلة ما كانت تعانيه من فقر وعدم مبالاة من الوالد حتى جاء الجنود العثمانيون عام (١٨٩١) وألقوا القبض عليه أودعوه السجن بسبب لسوء إدارته الضرائب التي كان يجبيها. أدين وجرد من كل ثرواته وباعوا منزلهم الوحيد فاضطرت العائلة إلى النزول عند بعض الأقرباء ولكن الوالدة قررت ان الحل الوحيد لمشاكل العائلة هو الهجرة إلى الولايات المتحدة الإميركية سعيا وراء حياة أفضل.

■ ■ ■

هجرة العائلة إلى أمريكا

أربك دخول خليل والد جبران الى السجن والدة جبران تماماً. كيف ستطعم أولادها الأربعة ولا تملك أي شيء. فكرت بالهجرة. ولكن أين ستجد نفقات السفر.. باعت ما تبقى لها من تركة والدها. والتمست تدخل أحد الأساقفة للحصول على إذن السفر من السلطات الأمريكية. ورحلت الأسرة بحراً عام ١٨٩٥ إلى العالم الجديد إلى بوسطن.

عام ١٨٩٤ خرج خليل جبران من السجن وكان مختارا في شأن الهجرة ولكن الوالدة كانت قد حزمت أمرها فسافرت العائلة تاركة الوالد وراءها.

حطت الأسرة الرحال في «إليس إيسلاند» نيويورك في ١٧ حزيران ١٨٩٥. ووصلوا إلى نيويورك بالتحديد في ٢٥ حزيران ١٨٩٥ ومنها انتقلوا إلى مدينة بوسطن حيث كانت تسكن أكبر جالية لبنانية في الولايات المتحدة. بعد ذلك بوقت قصير وهي المدينة التي ترتبط بها قضايا التاريخ الأمريكي الكبيرة: الثورة والاستقلال وإلغاء العبودية وتحرير النساء... . ونزلت العائلة في بوسطن في ضيافة أقارب كانوا قد جاءوا من بشري قبل سنوات قليلة وبذلك لم تشعر الوالدة بالغربة بل كانت تتكلم اللغة العربية مع جيرانها وتقاسمهم عاداتهم اللبنانية التي احتفظوا بها.

اهتمت الجمعيات الخيرية بإدخال جبران إلى المدرسة في حين قضت التقاليد بأن تبقى شقيقتاه في المنزل في حين بدأت الوالدة تعمل كبائعة متجولة في شوارع بوسطن على غرار الكثيرين من أبناء الجالية. وقد حصل خطأ في تسجيل اسم جبران في المدرسة وأعطي اسم والده وبذلك عرف في الولايات المتحدة باسم

«خليل جبران». وقد حاول جبران عدة مرات تصحيح هذا الخطأ فيما بعد إلا انه فشل.

بدأت أحوال العائلة تتحسن ماديا حيث راح الأخ البكر غير الشقيق بطرس يبحث عن عمل. ووجده في محل للمنسوجات. وكان على الأم كاملة أن تحمل على ظهرها بالة صغيرة من الشراشف والأغطية والحريريات السورية وتنتقل بها من بيت إلى بيت لبيعها. ثم عملت في الخياطة بمساعدة ابنتيها سلطانة وماريانا وعندما جمعت الأم مبلغا كافيا من المال أعطته لابنها بطرس الذي يكبر جبران بست سنوات وفتحت العائلة محلا تجاريا.

وكان معلمو جبران في ذلك الوقت يكتشفون مواهبه الأصيلة في الرسم ويعجبون بها إلى حد ان مدير المدرسة استدعى الرسام الشهير هولاند داي لإعطاء دروس خاصة لجبران مما فتح أمامه أبواب المعرفة الفنية وزيارة المعارض والاختلاط مع بيئة اجتماعية مختلفة تماما عما عرفه في السابق.

في نفس الوقت أشفقت كاملة على بطرس وهي تراه يكد لإعالة الأسرة بينما كان يمضي جبران وقته في القراءة والرسم والاستغراق في الأحلام. وطلبت منه مساعدة أخيه. لكنه رفض صراحة معلناً إن إصبع رسام صغيرة لتساوي ألف تاجر ـ ما عدا بطرس وإن صفحة من الشعر لتساوي كل أنسجة مخازن العالم!. في الواقع أخذ جبران يواظب على التردد إلى مؤسسة خيرية تعطي دروساً في الرسم اسمها «دنسيون هاوس» حيث لفتت موهبته انتباه مساعدة اجتماعية نافذة جداً اسمها «جسي» التي عرّفته من خلال صديق لها إلى المصور الشهير «فرد هولاند داي» الذي كان يدير داراً للنشر في بوسطن.

كان داي بحاجة لموديلات شرقية لصوره. وقد راقه جبران بوجهه المسفوع

وشعره الأسود ونظراته التأملية. ألبسه راعيه إياه ثياباً جديدة وأولمه وعرّفه إلى عالم الرسام والشاعر «وليم بليك» الذي اكتشف فيه جبران عالماً أسطورياً وتنبؤياً وبهره تنوع الينابيع التي أثرت مفرداته الشعرية وتأثر بخصوبة أعماله الرمزية الموسومة بالجدل الروحي بين الخير والشر والجنة والجحيم... . لم يكن بعد لصغر سنه بمستوى الارتقاء إلى فكر «بليك» كله غير أنه تمثل بعض أفكاره كنقد المجتمع والدولة وفضيلة الرغبة الخلاقة ووحدة الكائن وراح يخط رسوماً مشحونة بالرموز مستوحاة من رسوم الفنان والشاعر اللندني الشهير.

كان لداي فضل اطلاع جبران على الميثولوجيا اليونانية الأدب العالمي وفنون الكتابة المعاصرة والتصوير الفوتوغرافي ولكنه شدد دائما على ان جبران يجب ان يختبر كل تلك الفنون لكي يخلص إلى نهج وأسلوب خاصين به .وقد ساعده على بيع بعض إنتاجه من إحدى دور النشر كغلافات للكتب التي كانت تطبعها .وقد بدا واضحا انه قد اختط لنفسه أسلوبا وتقنية خاصين به وبدأ يحظى بالشهرة في أوساط بوسطن الأدبية والفنية.

■ ■ ■

العودة إلى لبنان

قررت عائلة جبران وخصوصا أمه أن الشهرة المبكرة ستعود عليه بالضرر وانه لا بد أن يعود إلى لبنان لمتابعة دراسته وخصوصا من أجل إتقان اللغة العربية .. وكان قد أثار تردد جبران المتزايد إلى أوساط «داي» الذي لم تكن سمعته تدعو للارتياح قلق الأسرة .وازدادت الأمور سوءاً بعد أن وقع في شراك زوجة تاجر في الثلاثين من عمرها وغيابه المتكرر عن البيت ليلاً. وكان قد فتن قبلها بامرأة أخرى... وفكرت كاملة بإعادة ابنها المراهق إلى لبنان. ولم يعترض جبران فوصل جبران إلى بيروت وهو يتكلم لغة إنكليزية ضعيفة ويكاد ينسى العربية أيضا.

رحل إلى بيروت في ٣٠ آب ١٨٩٨. كان بين أمتعته الأناجيل وكتاب لـ «توماس بلفنيتش» في الميثولوجيا اكتشف فيه الفنان الناشئ جبران دراما «بروميثيوس» وأسطورة «أورفيوس» والنبي الفارسي «زرادشت» والفلسفة الفيثاغورسية والأساطير الهندية.

هرع جبران فوراً إلى بشري وحضن أبيه وتوافد الأقارب والأصدقاء لرؤية «الأمريكي». كان بينهم أستاذه الشاعر والطبيب «سليم الضاهر» الذي نصحه بمتابعة دروسه في «كوليج دو لا ساجيس» التي بقي فيها زهاء ثلاث سنوات. ورغم تأخره في العربية الفصحى «طلب» الفتى قبوله في صف أعلى وعدم سؤاله قبل ثلاثة أشهر. وقبل القيمون «شروط» جبران الذي أعجبتهم جرأته وقوة شخصيته. كان من بين أساتذته الأب «يوسف حداد» الشاعر والكاتب المسرحي الذي اكتشف برفقته كنوز اللغة العربية وابن خلدون والمتنبي وابن سينا والشعراء الصوفيين . وبدأ يجيد التعبير عن أفكاره بلغته الأم وكتب أولى نصوصه بالعربية.

وتعلم الفرنسية وأخذ يقرأ آدابها. ويتذكر جبران أن تلك المدرسة كانت صارمة وأنه لم يكن يمتثل لمعلميه وأنه كان أقل تعرضاً للعقاب من بقية التلاميذ لأنه كان يدرس كثيراً. كان في الصف يسرح في فكره دائماً ويرسم ويغطي كتبه ودفاتره برسوم كاريكاتورية لأساتذته. كان جبران في نظر رفاق الصف غريباً بشعره الطويل الذي يرفض قصه ومواقفه غير المألوفة.

في بداية العام ١٩٠٠ مع مطلع القرن الوليد تعرف جبران على يوسف الحويك واصدرا معا مجلة «المنارة» وكانا يحررانها سوية فيما وضع جبران رسومها وحده. وبقيا يعملان معا بها حتى أنهى جبران دروسه بتفوق واضح في العربية والفرنسية والشعر (١٩٠٢) وكان في عام ١٩٠١ تم اختيار إحدى قصائده لنيل الجائزة التقديرية وكان يتوق بحماس لنيل هذه الجائزة لأن التلميذ الممتاز في هذه المدرسة هو الأكثر موهبة في الشعر كما قال.

يقول في قصيدة جميلة من روائع ما كتب :

ترحلت عن زمني عائدا خلال القرون إلى ما وراء

وما طيتي غير أني وقفت بآثار فن عداها الفناء

هياكل شيدها للخلود نبوغ جبابرة أقوياء

فجسمي في دهره ماكث وقلبي في أول الدهر ناء

أجلت بتلك الرسوم لحاظا يغالب فيها السرور البكاء

فما ارتهن الطرف إلا مثال عتيق الجمال جديد الرواء

مثال لإيزيس في صلده تحس الحياة وتجري الدماء

يروعك من عطفه لينه ويرويك من رونق الوجه ماء

به فجر الحسن من منبع فيا عجبا للرمال الظماء

فتون الدلال وردع الجلال وأمر الحياة ونهي الحياء
فأدركت كيف استبت عابديها بسحر الجمال وسر الذكاء
وبث العيون شعاع النهى يبيح السرائر من كل راء
لقد غبرت حقب لا تعد يدول النعيم بها والشقاء
تزول البلاد وتفنى العباد وإيزيس تزهو بغير ازدهاء
إذا انتابها الدهر ما زادها وقد حسر الموج إلا جلاء
لبثت أفكر في شأنها مطيفا بها هائما في العراء
فلما براني حر الضحى وأدركني في الطواف العياء
أويت إلى السمح من ظلها وفي ظلها الروح لي والشفاء
يجول بي الفكر كل مجال إذا أقعد الجسم فرط العناء
فما أنا إلا وتلك الإلهة ذات الجلالة والكبرياء
قد اهتز جانبها وانتحت تخطر بين السنى والسناء
وترمقني بالعيون التي تفيض محاجرها بالضياء
بتلك العيون التي لم تزل يدان لعزتها من إباء
فما في الملوك سوى أعبد وما في المليكات إلا إماء
وقالت بذاك الفم الكوثري الذي رصعته نجوم السماء
أيا ناشد الحسن في كل فن رصين المعاني مكين البناء
لقد جئت من آهلات الديار تحج الجمال بهذا العراء
فلا يوحشنك فقد أنيس سوى الذكر يعمر هذا الخلاء
وإن الرسوم لحال تحول وللحسن دون الرسوم البقاء
له صور أبدا تستجد وجوهره أبدا في صفاء

بكل زمان وكل مكان ينوع في الشكل للأتقياء

فليس القديم وليس الحديث لدى قدرة الله إلا سواء

رفعت لك الحجب المسدلات وأبرحت عن ناظريك الخفاء

تيمم بفكرك أرضا لنا بها صلة من قديم الإخاء

بلاد الشآم التي لم تزل بلاد النوابغ والأنبياء

ففي سفح لبنان حورية تفنن مبدعها ما يشاء

إذا ما بدت من خباء العفاف كما تتجلى صباحا ذكاء

تبينتها وهي لي صورة أعيدت إلى الخلق بعد العفاء

فتعرفها وبها حليتاي سحر الجمال وسر الذكاء

■ ■ ■

obeikan.com

عودته إلى أمريكا .. والمآسي في انتظاره

وقد وصلته أخبار عن مرض أفراد عائلته فيما كانت علاقته مع والده تنتقل من سيء إلى أسوأ فغادر لبنان عائدا إلى بوسطن ولكنه لسوء حظه وصل بعد وفاة شقيقته سلطانة. وخلال بضعة أشهر كانت أمه تدخل المستشفى لإجراء عملية جراحية لاستئصال بعض الخلايا السرطانية. قرر شقيقه بطرس ترك المحل التجاري والسفر إلى كوبا. وهكذا كان على جبران ان يهتم بشؤون العائلة المادية والصحية. ولكن المآسي تتابعت بأسرع مما يمكن احتماله. فما لبث بطرس ان عاد من كوبا مصابا بمرض قاتل هو (السل) وقضى نحبه بعد أيام قليلة (١٢ آذار ١٩٠٣) فيما فشلت العملية الجراحية التي أجرتها الوالدة في استئصال المرض وقضت نحبها في ٢٨ حزيران من السنة نفسها.

إضافة إلى كل ذلك كان جبران يعيش أزمة من نوع آخر فهو كان راغبا في إتقان الكتابة باللغة الإنكليزية لأنها تفتح أمامه مجالا أرحب كثيرا من مجرد الكتابة في جريدة تصدر بالعربية في أميركا (كالمهاجر) ولا يقرأها سوى عدد قليل من الناس. ولكن انكليزيته كانت ضعيفة جدا. ولم يعرف ماذا يفعل فكان يترك البيت ويهيم على وجهه هربا من صورة الموت والعذاب. وزاد من عذابه ان الفتاة الجميلة التي كانت تربطه بها صلة عاطفية وكانا على وشك الزواج في ذلك الحين (جوزيفين بيبادي) عجزت عن مساعدته عمليا فقد كانت تكتفي بنقد كتاباته الإنكليزية ثم تتركه ليحاول إيجاد حل لوحده. في حين ان صديقه الآخر الرسام هولاند داي لم يكن قادرا على مساعدته في المجال الأدبي كما ساعده في المجال الفني.

مع فجر القرن العشرين كانت بوسطن التي سميت «أثينا الأمريكية» مركزاً

فكرياً حيوياً اجتذب فنانين مشهورين وواعدين. وكان بعضهم راغباً في الخروج من معاقل المادية للبحث عن سبل فنية جديدة واستكشاف ميثولوجيا وحضارات الشرق بل وعلومه الباطنية والروحية. وغاص جبران في هذا المجتمع البوسطني الذي تزدهر فيه حركات صوفية كان أبلغها تأثيراً «الحكمة الإلهية» التي أنشأتها عام ١٨٧٥ الأرستقراطية الروسية «هيلينا بتروفنا بلافاتسكي» التي اطلعت على تراث الهند والتيبت وشجعت نهضة البوذية والهندوسية. وشيئاً فشيئاً اتضح له أن الروحانية الشرقية التي تسكنه يمكن أن تجد تربة خصبة في هذه البيئة المتعطشة للصوفية.

في ٦ كانون الثاني ١٩٠٤ عرض «داي» على جبران عرض لوحاته في الربيع القادم. لم يكن أمامه سوى أربعة أشهر. وبتأثيرات من عالم «وليم بليك» أنجز رسوماً عديدة تفيض بالرمزية. اجتذبت أعماله كثيراً من الفضوليين ولكن قليلاً من الشارين .وعبر عدد من النقاد عن إعجابهم بها.

قدمته جوزفين إلى امرأة من معارفها اسمها ماري هاسكل (١٩٠٤) فخطّت بذلك صفحات مرحلة جديدة من حياة جبران.

كانت ماري هاسكل امرأة مستقلة في حياتها الشخصية وتكبر جبران بعشر سنوات وقد لعبت دورا هاما في حياته منذ ان التقيا. فقد لاحظت ان جبران لا يحاول الكتابة بالإنكليزية بل يكتب بالعربية أولا ثم يترجم ذلك. فنصحته وشجعته كثيرا على الكتابة بالإنكليزية مباشرة. وهكذا راح جبران ينشر كتاباته العربية في الصحف أولا ثم يجمعها ويصدرها بشكل كتب ويتدرب في الوقت نفسه على الكتابة مباشرة بالإنكليزية.

عزم جبران على البحث عن عمل أكثر ربحاً من الرسم. ولما علم بأن شاباً لبنانياً

يدعى «أمين غريّب» أصدر صحيفة بالعربية في نيويورك اسمها «المهاجر» تقرب منه وأطلعه على رسومه وكتاباته وقصائده. قبل «غريب» مقابل دولارين في الأسبوع لجبران. وظهرت أول مقالة له في «المهاجر» بعنوان «رؤية». كان نصاً مفعماً بالغنائية أعطى الكلام فيه لـ «قلب الإنسان أسير المادة وضحية قوانين الأنام».

وفي ١٢ تشرين الثاني ١٩٠٤ احترق مبنى معرض «داي» وأتى على موجوداته كلها بما في ذلك رسوم جبران. وتحت صدمة الحريق الذي وصفه بأنه مشهد جديد من التراجيديا التي يعيشها منذ سنتين أصبح جبران يكتب أكثر مما يرسم. وخصه «أمين غريب» بزاوية منتظمة بعنوان «أفكار» ثم استبدله بعنوان «دمعة وابتسامة» حيث راح جبران يتحدث عن المحبة والجمال والشباب والحكمة .ونشرت له «المهاجر» عام ١٩٠٥ كتاباً بعنوان «الموسيقى».

■ ■ ■

obeikan.com

باريس .. مرحلة جديدة

كانت باريس في بدايات القرن العشرين حلم فناني العالم كله. بعد وصوله إليها بوقت قصير أقام في «مونبارناس» وسرعان ما انتسب إلى «أكاديمية جوليان» أكثر الأكاديميات الخاصة شعبية في باريس التي تخرج منها فنانون كبار «ماتيس» و«بونار» و«ليجيه»... وانتسب كطالب مستمع إلى «كلية الفنون الجميلة». أوقات فراغه كان جبران يقضيها ماشياً على ضفاف نهر السين ومتسكعاً ليلاً في أحياء باريس القديمة. بعد أن ترك باريس لاحقاً قال لصديقه «يوسف حويك» الذي عاش معه سنتين في مدينة النور: «كل مساء تعود روحي إلى باريس وتتيه بين بيوتها. وكل صباح أستيقظ وأنا أفكر بتلك الأيام التي أمضيناها بين معابد الفن وعالم الأحلام».

لم يستطع جبران البقاء طويلاً في «أكاديمية جوليان» حيث وجد أن نصائح أستاذه فيها لم تقدم له أية فائدة. من المؤكد أن أسلوبه لم يستطع إرضاء روح جبران الرومانسية. في بداية شباط ١٩٠٩ عثر الفنان على أستاذ جديد: «بيير مارسيل بيرونو» «الفنان الكبير والرسام الرائع والصوفي..» حسب عبارة جبران. لكنه تركه أخيراً بعد أن نصحه الفنان الفرنسي بالانتظار والتمهل حتّى ينهي كل قاموس الرسم فجبران نهم إلى المعارف والإبداع وراغب في حرق المراحل.

تردد حينذاك إلى أكاديمية «كولاروسي» المتخصصة في الرسم على النموذج والتي كانت تستقبل فنانين أجانب غير أن جبران كان يفضل العمل وحيداً وبملء الحرية في مرسمه وزيارة المعارض والمتاحف كمتحف اللوفر الذي كان يمضي ساعات طويلة في قاعاته الفسيحة. وأعطى دروساً في الرسم لبعض الطلبة. وانخرط في مشروع طموح: رسم بورتريهات شخصيات شهيرة وقد ابتدأها

بالنحات الأمريكي «برتليت» دون أن نعرف بدقة إن كان قد التقى بهؤلاء.

في هذه الأثناء توفي والده. وكتب إلى «ميري هاسكل» يقول: «فقدت والدي.. مات في البيت القديم حيث ولد قبل ٦٥ سنة.. كتب لي أصدقاؤه أنه باركني قبل أن يسلم الروح. لا أستطيع إلاّ أن أرى الظلال الحزينة للأيام الماضية عندما كان أبي وأمي وبطرس وكذلك أختي سلطانة يعيشون ويبتسمون أمام وجه الشمس.

كان جبران دائم الشك طموحاً ومثالياً متصوراً أنه يستطيع إعادة تكوين العالم وسعى إلى إقناع الآخرين بأفكاره ونظرياته حول الفن والطبيعة... وقلقاً وكثير التدخين وقارئاً نهماً وقد أعاد قراءة «جيد» و«ريلكه» و«تولوستوي» و«نيتشه» وكتب نصوصاً بالعربية وصفها المحيطون به بأنها «حزينة ووعظية».

في ذلك الوقت قدم إلى باريس عدد كبير من دعاة الاستقلال السوريين واللبنانيين المطالبين بحق تقرير المصير للبلدان العربية الواقعة تحت النير العثماني. وظهرت فيها جمعيات سرية تطالب بمنح العرب في الإمبراطورية العثمانية حقوقهم السياسية وبالاعتراف بالعربية لغة رسمية... وتردد جبران إلى هذه الأوساط وتشرب بأفكارها. ورأى أن على العرب أن يثوروا على العثمانيين وأن يتحرروا بأنفسهم.

رغب جبران في التعريف بفنه. ونجح في الوصول إلى أشهر معارض باريس السنوية معرض الربيع حيث استطاع أن يعرض لوحة عنوانها «الخريف» آملاً أن يمر بها «رودان العظيم» فيعجب بها ويثمنها. جاء الفنان الفرنسي ووقف لحظة أمامها وهز رأسه وتابع زيارته. بعد ذلك راح يهيئ اللوحات التي دعي لعرضها في معرض الاتحاد الدولي للفنون الجميلة في باريس الذي دعي إليه بشكل رسمي. إلاّ أن عدم الاستقرار أتعبه فتخلى عن المشروع ليترك باريس ولم تتسن له بعد ذلك العودة قط إلى مدينة الجمال والفنون ولا إلى مسقط رأسه لبنان. ولم تأته فرصة لرؤية إيطاليا التي طالما حلم بزيارتها!

غادر باريس ليعود إلى بوسطن

عام ١٩٠٨ غادر جبران إلى باريس لدراسة الفنون وهناك التقى مجددا بزميله في الدراسة في بيروت يوسف الحويك. ومكث في باريس ما يقارب السنتين ثم عاد إلى أميركا بعد زيارة قصيرة للندن برفقة الكاتب أمين الريحاني.

وصل جبران إلى بوسطن في كانون الأول عام ١٩١٠ حيث اقترح على ماري هاسكل الزواج والانتقال إلى نيويورك هربا من محيط الجالية اللبنانية هناك والتماسا لمجال فكري وأدبي وفني أرحب. ولكن ماري رفضت الزواج منه بسبب فارق السن وان كانت قد وعدت بالحفاظ على الصداقة بينهما ورعاية شقيقته مريانا العزباء وغير المثقفة.

وهكذا انتقل جبران إلى نيويورك ولم يغادرها حتى وفاته . وهناك عرف نوعا من الاستقرار مكنه من الانصراف إلى أعماله الأدبية والفنية فقام برسم العديد من االوحات لكبار المشاهير مثل رودان وساره برنار وغوستاف يانغ وسواهم.

ميري العزيزة :

حال وصوله إلى بوسطن في بداية تشرين الثاني هرع لرؤية أخته «مارينا». ثم مضى للقاء «ميري» التي أعلمته على الفور ـ حرصاً منها على إبقاء الفنان تحت رعايتها ـ بأنها مستعدة للاستمرار في منحه الخمسة وسبعين دولاراً التي كانت تقدمها له إبان إقامته الباريسية. ونصحته باستئجار بيت أوسع لممارسة فنه بحرية. وساعدته في تحسين لغته الإنكليزية. وتعززت صداقتهما. وفي ١٠ كانون الأول زارها في بيتها لمناسبة عيد ميلادها السابع والثلاثين وعرض عليها الزواج. لكنها رفضت بحجة أنها تكبره بعشر سنوات. وكتب لها فيما بعد أنها جرحته بهذا الرفض.

وقررت «ميري» أن تتراجع وتقبل. ثم عادت فرفضت مرة أخرى.. ربما بسبب علاقاته مع نساء أخريات أو لخوفها من الزواج بأجنبي. وسعى جبران بعد ذلك لإغراق خيبة أمله في العمل. وسرعان ما شعر بأن بوسطن مدينة باردة وضيقة وأنها أصغر من طموحاته الفنية خصوصاً بعد تلك الإقامة في باريس الرحبة والدافئة عدا الجرح الذي تركته فيه «ميري». وقرر المغادرة إلى نيويورك. حزم حقائبه غير آسف حاملاً معه مخطوطة «الأجنحة المتكسرة» ونسخة من «هكذا تكلم زرادشت» لنيتشه.

نيويورك :

قال الشاعر والكاتب الفرنسي «بول كلودل» بعد وصوله إلى نيويورك عام ١٨٣٨: «.... بالنسبة للغريب الذي يقع هنا جاهلاً كل شيء ودواعي كل شيء تكون أيامه الأولى مذهلة..». إلاّ أن جبران فهمها فوراً: «نيويورك ليست مكاناً يمكن أن يجد فيه المرء راحة». بدأ إقامته بزيارة متحف «متروبوليتان ميوزم أف آرت» الذي خرج منه مندهشاً. تعرف إلى الجالية اللبنانية وبعض مشاهير نيويورك. في هذه الأثناء جاءت «ميري» إلى نيويورك ووجدته يرسم لوحة «إيزيس». زارا بعض المتاحف والأوابد. وبعد حين عادا معاً إلى بوسطن حيث تهيأت الصديقة لقضاء عطلة في غرب البلاد. وعرضت حينذاك على جبران مبلغ خمسة آلاف دولار دفعة واحدة بدلاً من المبالغ الصغيرة المتقطعة. قبل بالعرض وألح بأن يوصي لها بكل ما يملك عرفاناً بجميلها. وكتب وصية أدهشت أصدقاءه. أوصى بكل لوحاته ورسومه إلى «ميري» أو إن كانت متوفاة إلى «فرد هولاند داي» وبمخطوطاته الأدبية إلى أخته وبكتبه في لبنان إلى مكتبة بشري.

استغل جبران الصيف لإنهاء «الأجنحة المتكسرة» وروتشة لوحة «إيزيس» وبدأ برسم لوحات جديدة وزين بالرسوم كتاباً لأمين الريحاني وكتب مقالتين إحداهما

بعنوان «العبودية» حيث يندد بالعبودية التي تقود شعباً وفقاً لقوانين شعب آخر والأخرى بعنوان «أبناء أمي» يتمرد فيها على مواطنيه الذين لا يثورون في وجه المحتل. وحضر محاضرة للشاعر والكاتب المسرحي الإيرلندي «وليم ييتس» (جائزة نوبل ١٩٢٣) وتعارفا والتقيا مراراً.

في ١٨ تشرين الأول عاد جبران إلى نيويورك وأقام في مبنى «تنث ستريت ستوديو» المخصص للفنانين. في هذه السنة نشر روايته «الأجنحة المتكسرة» أكثر أعماله رومانسية والتي أنبأت بأسلوبه وفكره المستقبليين.

في ١٥ نيسان ١٩١٢ هزت العالم حادثة غرق الـ «تيتانيك» التي كان على متنها مئات الأشخاص بينهم ٨٥ لبنانياً غرق ٥٢ منهم. كانت الكارثة صدمة بالنسبة لجبران الذي عز عليه النوم تلك الليلة. في اليوم نفسه التقى بعبد البهاء ابن بهاء الله مؤسس حركة البهائية الروحية في إيران ودعاه لإلقاء خطاب أمام أعضاء «الحلقة الذهبية» حول وحدة الأديان.

في بداية الخريف التقى جبران بالكاتب والروائي الفرنسي «بيير لوتي» الذي جاء إلى نيويورك لحضور عرض مسرحية «بنت السماء» التي ألفها مع ابنة الأديب والشاعر الفرنسي «تيوفيل غوتيه» .وقد عبر له «لوتي» عن قرفه من صخب أمريكا وقدم له نصيحة: «أنقذ روحك وعد إلى الشرق مكانك ليس هنا.«!

كيف يمكننا تصور جبران في هذه الفترة من حياته؟ كانت له ملامح أهل قريته: وجه ملوح بالسمرة وأنف بارز وشارب أسود وكثيف وحاجبان مقوسن كثان وشعر معقوص قليلاً وشفتان ممتلئتان وجبين عريض مهيب مثل قبة وعينان يقظتان تنمان عن ذكاء هذا الشخص قصير القامة ذي الابتسامة المشرقة الموحية ببراءة الأطفال «مكهرب ومتحرك كاللهب» (ميري) وطبيعة هي أقرب إلى الحزن محب للانعزال

(«الوحدة عاصفة صمت تقتلع كل أغصاننا الميتة») ويجد لذة في العمل أنوف وبالغ الحساسية ولا يتسامح مع أي نقد مستقل وثائر بطبيعته يأبى الظلم بأي شكل.

كان يدخن كثيراً: «اليوم ـ كتب إلى ميري ـ دخنت أكثر من عشرين سيجارة. التدخين بالنسبة لي هو متعة وليس عادة مستبدة...». وليلاً كي يبقى متنبهاً ويستمر في عمله كان يتناول القهوة القوية ويأخذ حماماً بارداً. إلا أن أسلوب الحياة إياه بدأ ينهك جسمه ويضفي عليه ملامح الكبر.

في العام ١٩١٣ التقى بعدد من مشاهير عالم الفن النيويوركيين مثل الشاعر «ويتر بوينر». وفي شباط تخلى لـ «ميري» عن مجموعة من لوحاته وفاء للدين متمنياً أن يتخلص من هذا الوضع الذي كان يضايقه. وعاد إلى إكمال مجموعة بورتريهاته مخصصاً إحداهاللمخترع الأمريكي «توماس إديسون» وأخرى لعالم النفس السويسري «كارل غوستاف يونغ» اللذين قبلا الجلوس ليرسمهما جبران. والتقى بالفيلسوف الفرنسي «هنري برجسون» الذي وعده بأن يسمح له برسمه في باريس معتذراً آنئذ بسبب الإنهاك من السفر وبالممثلة الفرنسية «ساره برنهاردت»: «باختصار كانت لطيفة. يؤكد جبران. حدثتني بفرح غامر عن أسفارها إلى سورية ومصر وأخبرتني أن أمها كانت تتكلم العربية وأن موسيقى هذه اللغة كانت وما تزال حية في نفسها». وقبلت أن تجلس ليرسمها ولكن عن بعد «كي لا تظهر ملامح وجهها». كانت قد أصبحت في عامها التاسع والستين.

في نيسان ١٩١٣ ظهرت في نيويورك مجلة «الفنون» التي أسسها الشاعر المهجري الحمصي «نسيب عريضة». ونشر فيها جبران مقالات متنوعة جداً وقصائد نثرية. ووقع فيها على دراسات أدبية كرسها لاثنين من كبار الصوفيين الغزالي وابن الفارض اللذين تأثر بأفكارهما.

جبران ومي زيادة

«مي» هو الاسم الذي اختارته تلك المرأة القلقة التي تبدو كالبحر تارة هادئة وشفافة وأخرى ثائرة. ولدت عام ١٨٨٦ من أب لبناني وأم فلسطينية. رحلت أسرتها عام ١٩٠٨ إلى القاهرة. أتقنت لغات عدة وأظهرت مواهب استثنائية في النقد والأدب والصحافة. حولت دارها في القاهرة إلى صالون أدبي وراحت تستقبل فيها كبار الأدباء والمثقفين كـ «طه حسين» و«عباس محمود العقاد» و«يعقوب صروف». اكتشفت جبران عام ١٩١٢ عبر مقالته «يوم مولدي» التي ظهرت في الصحافة .وأسرها أسلوبه. وقرأت «الأجنحة المتكسرة» وأعجبت بآرائه حول المرأة فيه. تراسلا وتبادلا في رسائلهما الإطراء وتحدثا عن الأدب. روى لها همومه اليومية وطفولته وأحلامه وأعماله. وانعقدت بينهما علاقة ألفة وحب. وطلب منها عام ١٩١٣ تمثيله وقراءة كلمته في حفل تكريم شاعر القطرين «خليل مطران». كانت «مي» حساسة جداً وحالمة. ولما انقطعت رسائل جبران عقب قيام الحرب العالمية الأولى تعلقت بذكرى مراسلها البعيد ورفضت كل الطامحين إلى الزواج منها. وتمنت في مقالة لها أن تكون بقرب ذلك الوجه الذي يمنع البعاد رؤيته.

لم يلتقيا قط غير أن الكاتبين شعرا أنهما قريبان أحدهما من الآخر وأحس أن «خيوطاً خفيفة» تربط بين فكرهما وأن روح «مي» ترافقه أينما اتجه.

في عام ١٩٢١ أرسلت له صورتها فأعاد رسمها بالفحم. واكتشف بسعادة أنها امرأة مليئة الوجه ذات شعر بني قصير وعينين لوزيتي الشكل يعلوهما حاجبان كثان وشفتين ممتلئتين. وجد في نظرتها البراقة شيئاً معبراً يجتذبه وفي ملامحها بعضاً

من الذكورة صرامةً كامنة تضفي عليها مزيداً من الجاذبية: «مي» تجسد الأنوثة الشرقية. كان في هذه المرأة كل ما يعجبه غير أنها بعيدة جداً. ولم يكن يشعر أنه مهيأ بعد لترك أمريكا فيتخلى عن حريته. هذا الحب الروحي الفكري أعجبه .ولكن هل فكر بمجرد ما لكماته من وقع على قلب مراسلته؟.

في عام ١٩٢٣ كتب لها يقول دون كلفة: «أنت تعيشين فيّ وأنا أعيش فيك تعرفين ذلك وأعرفه». كانت «مي» كلما بدت عبارات مراسلها أكثر جرأة أو شابها بعض سخرية من تعبير اختارته دون قصد منها تلجأ إلى «مقاطعته» وتلوذ بصمت يستمر أشهراً أحياناً. مشاعرها الحقيقية كانت تبوح بها في مقالاتها. وإن كانت قد خصت أعماله بمقالات نقدية مدحية فقد نهرته في أخرى. وفي مقالة بعنوان «أنت الغريب» عبرت عن كل هواها نحو «ذاك الذي لا يعرف أنها تحبه» و«الذي تبحث عن صوته بين كل الأصوات التي تسمعها».

في رسالة له عام ١٩٢٤ عبرت له «مي» عن خوفها من الحب. ورد عليها جبران: «.. هل تخافين ضوء الشمس ؟ هل تخشين مد البحر وجزره ؟...». فاجأه موقفها. وبدا أنه اختار التراجع لإنقاذ حريته أو وقته مفضلاً عدم الانطلاق في علاقة قد تتطلب منه ومنها تضحيات كبيرة .أدركت «مي» حينذاك بمرارة سوء التفاهم بين رغبتها وفكرة جبران عن علاقتهما. وأسفت أنها كانت على هذا القدر من الصراحة والمباشرة. وصمتت ثمانية أشهر رآها جبران «طويلة كأنها أزل».

رغم كل شيء استمرت مراسلاتهما متباعدة حتى وفاة جبران لتبقى واحدة من الأخصب والأجمل في الأدب العربي.

■ ■ ■

الحرب الكبرى

أقلقت الحرب جبران رغم بعده عن ساحات المعارك بآلاف الكيلومترات. وجعله الوضع في لبنان مضطرباً: استولت السلطات العثمانية على كل موارد البلد وصادرت الماشية وانتشرت المجاعة وقمع المعارضون وعلق جمال باشا السفاح مشانق الوطنيين اللبنانيين والعرب في الساحات العامة. وشعر بالذنب لبعده عن «أولئك الذين يموتون بصمت». ولم يتردد في قبول منصب أمين سر لجنة مساعدة المنكوبين في سوريا وجبل لبنان. وساهم بمشاركة الجالية السورية ـ اللبنانية في بوسطن ونيويورك في إرسال باخرة مساعدات غذائية إلى مواطنيه. دفع هذا النشاط بعض الكتاب لأن يجعلوا من جبران أيديولوجياً وصاحب نظرية سياسية غير أنه لم يكن من ذلك في شيء. وقد رد على من حضه للقيام بدور الزعيم السياسي بالقول: «لست سياسياً ولا أريد أن أكون كذلك». كان دافعه هو حس المسؤولية وتلبية نداء الواجب .كان همه إنسانياً تحرير الوضع البشري من كل عبودية.

أدبه :

كان في كتاباته اتجاهين أحدهما يأخذ بالقوة ويثور على العقائد والدين والآخر يتتبع الميول ويحب الاستمتاع بالحياة.

أبطأ هذا النشاط الإنساني والأخبار المأساوية التي توافدت عليه من أوروبا والمشرق نتاجه الأدبي. صحيح أنه نشر عام ١٩١٤ مجموعته «دمعة وابتسامة» غير أنها لم تكن سوى جمع لمقالات بالعربية (٥٦ مقالة) نشرت في «المهاجر» وكان هو نفسه قد تردد في نشرها .كانت ذات نفحة إنسانية وضمت تأملات حول الحياة والمحبة والوضع في لبنان وسورية وقد اتخذت شكل القصيدة المنثورة الأسلوب

غير المعروف في الأدب العربي وقد كان رائده.

في هذه الفترة تقريباً شعر بالحاجة للكتابة بالإنكليزية هذه اللغة التي يمكن أن تفتح له الكثير من الأبواب وتمكنه من ملامسة الجمهور الأمريكي. قرأ «شكسبير» مرة أخرى وأعاد قراءة الكتاب المقدس مرات عدة بنسخة «كينغ جيمس».. . كانت إنكليزيته محدودة جداً غير أنه عمل طويلاً وبجد حتى أتقن لغة شكسبير ولكن دون أن يتخلى عن لغته الأم: «بقيت أفكر بالعربية». «.. كان غنى العربية التي أولع بها يدفعه دائماً إلى سبر الكلمة التي تتوافق بأفضل شكل مع مثيلتها في الإنكليزية بأسلوب بسيط دائماً...» كما ذكرت مساعدته «بربارة يونغ».

من أين يبدأ ؟ كان أمامه مشروع «النبي» الذي نما معه منذ الطفولة. سار العمل بطيئاً جداً. أراد أخيراً أن يجد موضوعاً يستقطب أفكاره ولغته الثانية. وفكر جبران: ما الذي يمكن مع الإفلات من العقاب أن يكشف حماقة الناس وجبنهم وينتزعه حُجُب المجتمع وأقنعته ؟

المجنون. أغرته الفكرة. لم ينس «قزحيّا» في الوادي المقدس وتلك المغارة التي كانوا يقيدون فيها المجانين لإعادتهم إلى صوابهم كما كانوا يعتقدون. في «يوحنا المجنون» كان قد كتب يقول إن «المجنون هو من يجرؤ على قول الحقيقة» ذاك الذي يتخلى عن التقاليد البالية والذي «يصلب» لأنه يطمح إلى التغيير. برأيه «أن الجنون هو الخطوة الأولى نحو انعدام الأنانية... هدف الحياة هو تقريبنا من أسرارها والجنون هو الوسيلة الوحيدة لذلك». وهكذا عنوان كتابه القادم : The Madman وبقي أن يكتبه.

في هذه الأثناء شارك في مجلة جديدة The Seven Arts؛ التي كان ينشر فيها كتاب مشهورون مثل «جون دوس باسوس» و«برتراند راسل» ومن خلالها أضحى مشهوراً في الأوساط الفنية النيويوركية حيث نشر رسومه ونصوصه الأولى بالإنكليزية.

كانت فترة ١٩١٤ ـ ١٩١٦ غنية باللقاءات: تردد جبران إلى صالونات المجتمع الراقي الذي كانت تديره نساء متنفذات. تعرف إلى الفنانة الشهيرة «روز أونيل» وعمدة نيويورك والشاعرة «آمي لويل» والرسام الرمزي «ألبرت رايدر». ودعي عدة مرات إلى Poetry Society of America؛ التي ألقى فيها مقتطفات من كتاب Madman؛ الذي كان بصدد تأليفه أمام حضور منتبه.

في خريف ١٩١٦ التقى مرة أخرى بمخائيل نعيمة الذي ألف فيه كتاباً جبران خليل جبران . كان «نعيمة» يدرس في روسيا قبل أن يتوجه إلى الولايات المتحدة حيث درس أيضاً القانون والآداب. كتب كلاهما في «الفنون» وكلاهما آمنا بالتقمص وناضل كلاهما من أجل تحرير بلدهما عبر لجنة المتطوعين جبران كمسؤول عن المراسلات بالإنكليزية ونعيمة كمسؤول عن المراسلات بالعربية.

في كانون الأول ١٩١٦ التقى أخيراً بـ «رابندراناته طاغور» الشاعر الهندي الشهير المتوج بجائزة نوبل في الآداب لعام ١٩١٣. وكتب إلى «ميري» في وصفه قائلاً: «حسن المنظر وجميل المعشر. لكن صوته مخيِّب: يفتقر إلى القوة ولا يتوافق مع إلقاء قصائده...».

بعد هذا اللقاء لم يتردد صحفي نيويوركي في عقد مقارنة بين الرجلين: كلاهما يستخدمان الأمثال في كتاباته ويتقنان الإنكليزية واللغة الأم .وكل منهما فنان في مجالات أخرى غير الشعر.

مع اقتراب الحرب من نهايتها أكب جبران أكثر على الكتابة. ألف مقاطع جديدة من «النبي» وأنهى كتابه «المجنون» التي اشتملت على أربعة وثلاثين مثلاً (قصة قصيرة رمزية) وقصيدة. أرسلها إلى عدة ناشرين لكنهم رفضوها جميعاً بحجة أن هذا الجنس الأدبي «لا يباع». لكنه وجد ناشراً أخيراً وظهر العمل عام ١٩١٨ مزيناً

بثلاثة رسوم للمؤلف.

وكان جبران قد كتب بعض نصوصه بالعربية أصلاً ثم ترجمها إلى الإنكليزية. ويروي فيه حكاية شخص حساس ولكن «مختلف» يبدأ بإخبارنا كيف أصبح مجنوناً. «... في قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نهضت من نوم عميق فوجدت أن جميع براقعي قد سرقت... فركضت سافر الوجه في الشوارع المزدحمة صارخاً بالناس: «اللصوص! اللصوص! اللصوص الملاعين!» فضحك الرجال والنساء مني وهرب بعضهم إلى بيوتهم خائفين مذعورين... هكذا صرت مجنوناً ولكني قد وجدت بجنوني هذا الحرية والنجاة معاً...». تميز أسلوب جبران في «المجنون» بالبساطة واللهجة الساخرة والمرارة وشكل هذا العمل منعطفاً في أعمال الكاتب ليس فقط لأنه أول كتاب له بالإنكليزية بل لما فيه من تأمل وسمو روحي. وأرسل نسخة منه إلى «مي زيادة» التي وجدته سوداوياً ومؤلماً. وأرسل نسخة أخرى إلى «جيرترود باري» حبيبته الخبيئة. ربما أخفى جبران هذه العلاقة كي لا يجرح «ميري» ومن أجل أن لا تمس هذه العلاقة اللاأفلاطونية صورته الروحية. كان لجبران علاقات غير محددة أفلاطونية وجسدية: «جيرترود شتيرن» التي التقاها عام ١٩٣٠ واعتبرت نفسها حبه الأخير و«ماري خواجي» و«ماري خوريط» و«هيلينا غوستين» التي أكدت كما فعلت «شارلوت» و«ميشلين» بأن جبران «زير نساء» وقد روت مازحةً ومداعبة أنه طلب منها ذات مرة أن تشتري له مظلة ليقدمها إلى شقيقته «ماريانا» لكنها اكتشفت بعد حين أنه قد أهداها لامرأة أخرى .هذه المغامرات عاشها جبران سراً إما حفاظاً على سمعة تلك العشيقات أو خوفاً من تشويه الصورة التي كان يريد أن يعطيها حول نفسه: صورة الناسك صورة الكائن العلوي عاشق الروح وليس الجسد.

في تشرين الثاني ١٩١٨ أعلن الهدنة أخيراً. وكتب جبران إلى «ميري» يقول:

«هذا أقدس يوم منذ ميلاد اليسوع.»!

في أيار ١٩١٩ نشر جبران كتابه السادس بالعربية «المواكب». كان قصيدة طويلة من مائتين وثلاثة أبيات فيها دعوة للتأمل كتبها على شكل حوار فلسفي بصوتين: يسخر أحدهما من القيم المصطنعة للحضارة ويغني الآخر الأكثر تفاؤلاً أنشودةً للطبيعة ووحدة الوجود. وقد تميز الكتاب بتعابيره البسيطة والصافية والتلقائية.

في نهاية عام ١٩١٩ نشر مجموعة من عشرين رسماً تحت عنوان .Twenty Drawings وقد أدخل الناشر إلى مقدمتها نصاً للناقدة الفنية «أليس رافائيل إكستين» حيث جاء فيها أن جبران «يقف في أعماله الفنية عند الحدود بين الشرق والغرب والرمزية والمثالية». وقد قيل إن «جبران يرسم بالكلمات» إذ يبدو رسمه في الواقع تعبيراً دقيقاً عن أفكاره.

منتدى الشعراء المنفيين :

في ليلة ٢٠ نيسان ١٩٢٠ رأى الكتاب السوريون واللبنانيون في اجتماع لهم في نيويورك أنه يجب التصرف من أجل «إخراج الأدب العربي من الموحل أي الركود والتقليد الذي غاص فيهما». يجب حقنه بدم جديد. وقرر المشاركون تأسيس تنظيم يتمحور حول الحداثة ويكرس لجمع الكتاب وتوحيد جهودهم لخدمة الأدب العربي. وجد جبران الفكرة ممتازة ودعا الأعضاء للاجتماع عنده بعد أسبوع لاحق.

اجتمعوا في ٢٨ التالي وحددوا أهداف التنظيم الذي أسموه «الرابطة القلمية» التي ضمت جبران و«إيليا أبو ماضي» و«ميخائيل نعيمة» و«عبد المسيح حداد» صاحب مجلة «السايح» وآخرين في نشر أعمال أعضائها وأعمال الكتاب العربي الآخرين وتشجيع تعريب أعمال الأدب العالمي فضلاً عن أهداف أخرى. انتخب جبران رئيساً وميخائيل نعيمة أميناً للسر.

بقيت الرابطة تجتمع دورياً تقريباً حتى وفاة جبران. نشر الأعضاء مقالات في مجلة «السايح» وكرسوا عدداً في العام للمختارات. وأضحت الرابطة بأفكارها المتمردة رمزاً لنهضة الأدب العربي... رأى جبران أنه لن يكون للغته العربية مستقبل إذا لم تتحرر من القوالب القديمة ومن «عبودية الجمل الأدبية السطحية» وإذا لم تتمكن من إرساء حوار حقيقي مع الغرب وتتمثل تأثير الحضارة الأوروبية دون أن تجعلها تهيمن عليها.

في آب ١٩٢٠ أصدرت منشورات الهلال القاهرية مجموعة تضم ٣١ مقالة لجبران كانت قد ظهرت في صحف مختلفة ناطقة بالعربية. حملت «العواصف» على عيوب الشرقيين ـ تعلقهم بالماضي بالتقاليد القديمة ـ رافضة حالة خنوع المضطهدين وضعفهم داعيةً إياهم إلى الطموح والرفعة.

بعد أسابيع لاحقة نشر جبران كتابه الثاني بالإنكليزية «السابق» الذي زينه بخمسة من رسومه. وقد جاء على شكل أمثال وحكايات صغيرة مفعمة بالحكمة والتصوف وكان بمثابة تهيئة لكتاب جبران الأهم «النبي».

سنة ١٩٢٣ نشر كتاب جبران باللغة الإنكليزية وطبع ست مرات قبل نهاية ذلك العام ثم ترجم فورا إلى عدد من اللغات الأجنبية ويحظى إلى اليوم بشهرة قل نظيرها بين الكتب.

في هذه الأثناء حينما كان يعمل بمثابرة على مخطوطة «النبي» ساءت صحته ولم يداوها الفرار إلى الطبيعة برفقة الأصدقاء. آثر البقاء في بوسطن قرب شقيقته «ماريانا» ولم يعد يطمح إلا إلى إنهاء مخطوطته والعودة إلى مسقط رأسه غير أن أمنية العودة اصطدمت بمشكلة كبيرة: ملاحقة دائني والده القضائية لاسترجاع ديونهم ممن تبقى من أفراد الأسرة جبران وماريانا.

رائعة جبران الكبيرة .. النبي

سنة ١٩٢٣ ظهرت إحدى روائع جبران وهي رائعة (النبي) ففي عام ١٩٩٦ بيعت من هذا الكتاب الرائع في الولايات المتحدة وحدها تسعة ملايين نسخة. وما فتئ هذا العمل الذي ترجم إلى أكثر من أربعين لغة يأخذ بمجامع قلوب شريحة واسعة جداً من الناس. وفي الستينيات كانت الحركات الطلابية والهيبية قد تبنت هذا المؤلف الذي يعلن بلا مواربة: «أولادكم ليسوا أولاداً لكم إنهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها...». وفي خطبة شهرية له كرر «جون فيتزجرالد كندي» سؤال جبران: «هل أنت سياسي يسأل نفسه ماذا يمكن أن يفعله بلده له [...]. أم أنك ذاك السياسي الهمام والمتحمس [...] الذي يسأل نفسه ماذا يمكن أن يفعله من أجل بلده؟».

حمل جبران بذور هذا الكتاب في كيانه منذ طفولته. وكان قد غير عنوانه أربع مرات قبل أن يبدأ بكتابته. وفي تشرين الثاني ١٩١٨ كتب إلى «مي زيادة» يقول «هذا الكتاب فكرت بكتابته منذ ألف عام..». ومن عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٢٣ كرس جبران جل وقته لهذا العمل الذي اعتبره حياته و«ولادته الثانية». وساعدته «ميري» في التصحيحات إلى أن وجد عام ١٩٢٣ أن عمله قد اكتمل فدفعه إلى النشر ليظهر في أيلول نفس العام.

«النبي» كتاب شبيه بالكتاب المقدس وبالأناجيل من حيث أسلوبه وبنيته ونغمية جمله وهو غني بالصور التلميحية والأمثال والجمل الاستفهامية الحاضة على تأكيد الفكرة نفسها «من يستطيع أن يفصل إيمانه عن أعماله وعقيدته عن مهنته؟» «أو ليس الخوف من الحاجة هو الحاجة بعينها ؟».

أمكن أيضاً إيجاد تشابه بين «النبي» و«هكذا تكلم زرادشت» لنيتشه. من المؤكد أن جبران قرأ كتاب المفكر الألماني وثمّنه. اختار كلاهما حكيماً ليكون لسان حاله. الموضوعات التي تطرقا إليها في كتابيهما متشابهة أحياناً: الزواج والأبناء والصداقة والحرية والموت... . كما نعثر على بعض الصور نفسها في العملين كالقوس والسهم والتائه . ....مع ذلك ففي حين تتسم الكتابة النيتشوية برمزية شديدة وفصاحة تفخيمية تمتاز كتابة «النبي» بالبساطة والجلاء وبنفحة شرقية لا يداخلها ضعف. ونيتشه أقرب بكثير إلى التحليل الفلسفي من جبران الذي يؤثر قول الأشياء ببساطة.

«النبي» هو كتاب في التفاؤل والأمل. وبطريقة شاعرية وأسلوب سلس يقدم لنا جبران فيه برسالة روحية تدعونا إلى تفتح الذات و«إلى ظمأ أعمق للحياة».

ماذا يقول لنا جبران في «النبي» على لسان حكيمه ؟. عندما طلبت منه المطرة المرأة العرافة خطبة في المحبة قال: «المحبة لا تعطي إلا نفسها ولا تأخذ إلا من نفسها. المحبة لا تملك شيئاً ولا تريد أن يملكها أحد لأن المحبة مكتفية بالمحبة». ولما طلبت رأيه في الزواج أجاب: «قد ولدتم معاً وستظلون معاً إلى الأبد. وستكونون معاً عندما تبدد أيامكم أجنحة الموت البيضاء.. أحبوا بعضكم بعضاً ولكن لا تقيدوا المحبة بالقيود ..قفوا معاً ولكن لا يقرب أحدكم من الآخر كثيراً: لأن عمودي الهيكل يقفان منفصلين والسنديانة والسروة لا تنمو الواحدة منهما في ظل رفيقتها». وفي الأبناء يقول :« أولادكم ليسوا أولاداً لكم. إنهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها بكم يأتون إلى العالم ولكن ليس منكم. ومع أنهم يعيشون معكم فهم ليسوا ملكاً لكم». وفي العمل :«قد طالما أُخبرتم أن العمل لعنة والشغل نكبة ومصيبة. أما أنا فأقول لكم إنكم بالعمل تحققون جزءاً من حلم الأرض البعيد

جزءاً خصص لكم عند ميلاد ذلك الحلم. فإذا واظبتم على العمل النافع تفتحون قلوبكم بالحقيقة لمحبة الحياة. لأن من أحب الحياة بالعمل النافع تفتح له الحياة أعماقها وتدنيه من أبعد أسرارها».....

في عام ١٩٣١ كتب جبران بخصوص «النبي»: «شغل هذا الكتاب الصغير كل حياتي. كنت أريد أن أتأكد بشكل مطلق من أن كل كلمة كانت حقاً أفضل ما أستطيع تقديمه». لم تذهب جهوده عبثاً: بعد سبعين سنة على وفاته ما يزال يتداوله ملايين القراء في أنحاء العالم.

بقي جبران على علاقة وطيدة مع ماري هاسكال فيما كان يراسل أيضا الأديبة مي زيادة التي أرسلت له عام ١٩١٢ رسالة معربة عن إعجابها بكتابه « الأجنحة المتكسرة». وقد دامت مراسلتهما حتى وفاته رغم انهما لم يلتقيا أبدا.

■ ■ ■

obeikan.com

رحيل جبران إلى الآخرة

كانت صحة جبران قد بدأت تزداد سوءاً. وفي ٩ نيسان وجدته البوابة يحتضر فتوفي جبران في ١٠ نيسان ١٩٣١ في إحدى مستشفيات نيويورك وهو في الثامنة والأربعين بعد أصابته بمرض السرطان فنقل بعد ثلاثة أيام إلى مثواه الأخير في مقبرة «مونت بنيديكت» إلى جوار أمه وشقيقته وأخيه غير الشقيق. ونظمت فوراً مآتم في نيويورك وبيونس آيرس وساوباولو حيث توجد جاليات لبنانية هامة. وبعد موافقة شقيقته «ماريانا» تقرر نقل جثمان جبران في ٢٣ تموز إلى مسقط رأسه في لبنان. واستقبلته في بيروت جموع كبيرة من الناس يتقدمها وفد رسمي. وبعد احتفال قصير حضره رئيس الدولة نقل إلى بشري التي ووري فيها الثرى على أصوات أجراس الكنائس. وإلى جوار قبره نقشت هذه العبارة: «كلمة أريد رؤيتها مكتوبة على قبري: أنا حي مثلكم وأنا الآن إلى جانبكم. أغمضوا عيونكم انظروا حولكم وستروني....». عملت شقيقته على مفاوضة الراهبات الكرمليات واشترتا منهما دير مار سركيس الذي نقل إليه جثمان جبران وما يزال إلى الآن متحفا ومقصدا للزائرين.

■ ■ ■

بالحبر الأحمر السري

وقائع غرام مي وجبران

يعتبر جبران خليل جبران من الأدباء الذين أثروا فن المراسله عند العرب بما تركه من رسائل لفتت نظر الباحثين وأثارت فضولهم فولجوا عبرها إلى عالم جبران المليء بالرموز والأسرار .. لقد فتح جبران فتحاً جديداً ورائعاً في دنيا الأدب العربي عندما تحول عن التأليف بالعربيه ألى التأليف بالأنجليزيه.. حتى لمع أسمه في كثير من الدول الأجنبية .

وفي هذا الموضوع أود أن أسلّط الضوء على الحب الذي نشأ بين جبران ومي زياده حب فريد لامثيل له في تاريخ الأدب أو في سير العشاق مثال للحب النادر المتجرد عن كل ماهو مادي وسطحي .

لقد دامت تلك العاطفه بينهما زهاء عشرين عاماً دون أن يلتقيا إلاّ في عالم الفكر والروح والخيال الضبابي إذ كان جبران في مغارب الأرض مقيماً وكانت مي في مشارقها كا ن في أمريكا وكانت في القاهره. لم يكن حب جبران وليد نظره فابتسامه فسلام فكلام بل كان حباً نشأ ونما عبر مراسله أدبيه طريفه ومساجلات فكريه وروحيه ألفت بين قلبين وحيدين وروحين مغتربين .ومع ذلك كانا أقرب قريبين وأشغف حبيبين .

كان طبيعياً جداً أن يتعارف بطلا هذا الحب عن طريق الفكر والنشر في أوائل هذا القرن بعد ان أصاب كل منهما شهره كبيره .. كانت مي معجبه بمقالات جبران وافكاره فبدأت بمراسلته عقب أطلاعها على قصته (الأجنحه المتكسره) التي نشرها في المهجر عام ١٩١٢م كتبت له تعرب عن أعجابها بفكره وأسلوبه

وتناقش آراءه في الزواج وقيوده والحب وأطواره حسب رؤيته في هذه القصه التي قرأتها له .

وتعرض عليه رأيها في وجهة نظره في حرية المرأه التي طالب بها والتي اتفقت معه في أمر وعارضته في جانب آخر حيث قالت « لايصح لكل امرأة لم تجد في الزواج السعادة التي حلمت بها أن تبحث عن صديق غير زوجها فلا بد أن تتقيد المرأة بواجبات الشراكة الزوجية تقيداً تام حتى لو هي سلاسل ثقيله فلو توصل الفكر الى كسر قيود الأصطلاحات والتقاليد فلن يتوصل إلى كسر القيود الطبيعه لأن أحكام الطبيعية فوق كل شيء وهذه تعتبر خيانة ولوفي مظهرها طاهر وتخون الهيئة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيها .

ومن هنا كانت البداية ومن ثم تواصل بالرسائل التي كان كل منهما يبحث عن روح الآخر في يقظته وأحلامه كان كل منهما يسعى لرؤية ذاته في روح صاحبه حتى لكأن تلك الروح هي المرآة التي ينعكس على صفحتها نور الأخر ... وكلما قرأنا هذه الرسائل النابضة بالحياة الناضحة بالصدق كلما أزددنا يقيناً بأن الحب الذي شد جبران الى مي وشغف مي بجبران حب عظيم بل عشق يكاد يكون صوفياً لأنه تخطى حدود الزمان والمكان والحواس الى عالم تتحد فيه قوة الوجود ..

ويتضح لنا لدى التأمل في بعض الرسائل برغم ضياع بعضها أن الصله بين جبران ومي توثقت شيئاً فشيئاً لأن لهجته في مخاطبتها تدرّجت من التحفظ الى التودد ومن الأعجاب إلى صداقه حميمه ومن ثمَ إلى حب عام ١٩١٩م ما أن بلغ ذروته حتى عكرت صفوه سلسله من الخلافات بينهما التي عبّر عنها جبران مرةً « هي معاكسات التي تحوّل عسل القلب إلى مراره » وقال« ان الغريب حقاً في هذه الصله تأرجحها بين الحب الجامح والفتور بين التفاهم التام الذي كان يضفي

عليها شفافيه روحيه تغمرهما بالسعاده وبين سوء التفاهم الذي كان يؤلمها ويؤدي الى القطيعه احياناً «ولكن شدة ولع كل منهما الآخر كانت تدفعها للتصالح مجدداً.. وبرغم كل هذا الحب كان كل منهما يخشى التصريح بعواطفه فيلجأ جبران للتلميح ويرمز إليها ويضع عبارات وصور مبتكره وجميله .. فلم ينادي مي قط بقوله حبيبتي» ولم يخاطبها باللغه المألوفه للعشاق غير أنه عبّر عن حبه بما هو أبلغ عندما قال أنت تحيين فيّ وانا أحيا فيكِ ووصف علاقته بها « بأنها أصلب وأبقى بما لايقاس من الروابط الدمويه والأخلاقيه »وبعد أن باح لها رجاها ان تطعم النار رسالته اذا لم تجد لبوحه الصدى المرجوا في نفسها..

كانت مي في حياة جبران الصديقه والحبيبه الملهمه وصلة الوصل بينه وبين وطنه وأكثر ما رّغّبه فيها هو عقلها النيّر الذى تجلى في مقالاتها وكتبها وأحب فيها حبها له .. واعجابها بشخصيته وانتاجه الأدبي والفني الذي كانت تتناوله بالتقريظ والنقد في مقالاتها في مصر .

وعلى الرغم من كل ماكُتب عن علاقات جبران الغراميه من النساء أمثال « ماري هاسكل » و«ميشلين » فإن حبه لمي كان الحب الوحيد الذي ملك قلبه وخياله ورافقه حتى نهاية حياته فقد كان حبه لها معادلاً حبه العارم لوطنه لبنان ..ولروحانية الشرق وبالدم العربي الذي يجري في عروقه وهذا مما تؤكده رسائل الشعله الزرقاء التي هي جوهر النفس الأنسانيه في أسمى صفائها ويميل المحللون للأعتقاد بأنه لم يكن يفكر في الزواج لاعتلال في صحته منذ شبابه ولا ريب ان مي احبت جبران حباً جعل المقارنه بينه وبين الذين خطبوا ودّها أمراً مستحيلاً برغم تردد مي في الأعراب عن مشاعرها وخشيتها في الأنطلاق على سجيتها في مراسلته وذلك بسبب ان جبران كان يعيش في عالم متطور تحررت نساؤه من التقاليد وحيث

أن مي كانت مغلولة القلب والقلم بتأثير البيئه التي عاشت فيها .. وبرغم انها جعلت من بيتها صالوناً أدبياً يلتقي فيه كل ثلاثاء رجال الأدب والفكر امثال احمد لطفي السيد وخليل مطران وطه حسين وعباس محمود العقاد وغيرهم من الأدباء والمفكرين .

لقد تمنى جبران أن تتحرر مي من عقدها النفسيه وشكوكها ! مي عانت صراعاً نفسياً حاداً في حبها لجبران سبّب لها الشقاء ولجبران العذاب والأرهاق وحين تجاوزت الخامسه والثلاثين من العمر لملمت كل شجاعتها وكتبت أجمل رسالة حب لجبران .. فماذا كتب كل منهما للآخر من شوق وجنون وعشق ؟

■ ■ ■

obeikan.com

نصوص رسائل جبران خليل جبران لمي زيادة

■ نيويورك ٢ كانون الثاني

حضرة الأديبة الفاضلة.

قد فكرت بأمور كثيرة في تلك الشهور الخرساء التي مرت بدون خطاب ولا جواب ولكنه لم يخطر على بالي كونك «شريرة» أما الآن وقد صرّحت لي بوجود الشر في روحك فلا يجمل بي سوى تصديقك فأنا أصدق وأثق بكل كلمة تقولينها لي ! أنت بالطبع تفتخرين بقولك – أنا شريرة – ويحق لك الافتخار لأن الشر قوة تضارع الخير بعزمها وتأثيرها . ولكن اسمحي لي أن أقول لك مصرحاً بأنك مهما تماديت بالشر فلا تبلغين نصف ما بلغته فأنا شرير كالأشباح الساكنة في كهوف الجحيم بل أنا شرير كالروح السوداء التي تحرس أبواب الجحيم ! وأنت بالطبع ستصدقين كلامي هذا .

غير أنني للآن لم أفهم الأسباب الحقيقية التي دعتك إلى استخدام الشر ضدي فهلا تكرمت بافهامي ؟ قد أجبت على كل رسالة تكرمت بها عليّ واسترسلت متعمقاً بمعاني كل لفظة تعطفت بهمسها في أذني فهل هناك أمر آخر كان يجب عليّ أن أفعله ؟ أو لم تبدعي لي من « لا شيء» ذنباً لتبيني لي مقدرتك على الاقتصاص ؟ لقد فلحت وأحسنت البيان أما أنا فقد آمنت باقنومك الجديد الكلي المطلق الجامع بين أسياف « كالي» ربة الهند وسهام « ديانا» معبودة الأغريق.

والآن وقد فهم كل منا ما في روح الآخر من الشر والميل إلى الاقتصاص فلنعد إلى متابعة الحديث الذي ابتدأنا به منذ عامين . كيف أنت وكيف حالك ؟ هل أنت بصحة وعافية (كما يقول سكان لبنان) ؟ هل خلعت ذراعاً ثانية في الصيف الماضي

أم منعتك والدتك من ركوب الخيل فعدت إلى مصر صحيحة الذراعين ؟ أما أنا فصحتي أشبه شيء بحديث السكران وقد صرفت الصيف والخريف متنقلاً بين أعالي الجبال وشواطئ البحر ثم عدت إلى نيويورك أصفر الوجه نحيل الجسم لمتابعة الأعمال ومصارعة الأحلام – تلك الأحلام الغريبة التي تصعد بي إلى قمة الجبل ثم تهبط بي إلى أعماق الوادي.

وقد سررت باستحسانك مجلة الفنون فهي أفضل ما ظهر من نوعها في العالم العربي أما صاحبها فهو فتى عذب النفس دقيق الفكر وله كتابات لطيفة وقصائد مبتكرة ينشرها تحت اسم « ليف» ومما يستدعي الإعجاب بهذا الشاب هو أنه لم يترك شيئاً مما كتبه الافرنج إلا وعرفه حق المعرفة . أما صديقنا أمين الريحاني فقد ابتدأ بنشر رواية جديدة طويلة في مجلة فنون وقد قرأ لي أكثر فصولها فوجدتها جميلة للغاية ولقد أخبرت صاحب الفنون بأنك سوف تبعثين إليّ بمقالة ففرح وبات يترقب.

بكل أسف أقول إنني لا أحسن الضرب على آلة من آلات الطرب ولكنني أحب الموسيقى محبتي الحياة ولي ولع خاص بدرس قواعدها ومبانيها والتعمق بتاريخ نشأتها وارتقائها فان ابقتني الأيام سأكتب رسالة طويلة في الدوائر العربية والفارسية وكيفية ظهورها وتدرجها وتناسخها.

ولي ميل للموسقى الغربية يضارع ميلي للأنغام الشرقية فلا يمر أسبوع إلا وأذهب مرة أو مرتين إلى الأوبرا غير أني أفضل من البيان الموسيقي الأفرنجي تلك المعروفة بالسنفوني والسوناتا والكنتاتا على الأوبرا والسبب في ذلك خلوّ الأوبرا من البساطة الفنية التي تناسب أخلاقي وتتمايل مع أميالي . واسمحي لي الآن أن أغبط يدك على عودك وعودك على يدك وأرجوك أن تذكري اسمي مشفوعاً باستحساني

كلما ضربت نغم النهوند على الأوتار فهو نغم أحبه ولي رأي فيه يشابه رأي « كارليل في النبي محمد ». (كارلايل : أديب ومؤرخ انكليزي درس بعضا من العربية في جامعة كمبردج سنة ١٧٩٥ وكتب عن النبي محمد فصلا ضمنه إعجابه بشخصيته البطولية في مؤلفه « الأبطال عبادة الأبطال والبطولة في التاريخ» .

وهلا تكرمت بذكري أمام هيبة أبي الهول ؟ عندما كنت في مصر كنت أذهب مرتين في الأسبوع واصرف الساعات الطوال جالساً على الرمال الذهبية محدقاً بالأهرام وكنت في ذلك العهد صبياً في الثامنة عشرة ذا نفس ترتعش أمام المظاهر الفنية ارتعاش الأعشاب أمام العاصفة أما أبو الهول فكان يبتسم لي ويملأ قلبي بحزن عذب وندبات مستحبة.

أنا معجب مثلك بالدكتور شميل فهو واحد من القليلين الذين انبتهم لبنان ليقوموا بالنهضة الحديثة في الشرق الأدنى وعندي أن الشرقيين يحتاجون إلى أمثال الدكتور شميل حاجة ماسة كرد فعل للتأثير الذي أوجده الصوفيون والمتعبدون في القطرين مصر وسوريا.

هل قرأت الكتاب الفرنساوي الذي وضعه خير الله افندي خير الله ؟ أنا لم أره بعد وقد أخبرني صديق أن في الكتاب فصل عنك وفصل آخر عني فإذا كان لديك نسختان تكرمي بإرسال نسخة منهما إليّ وأجرك على الله.

ها قد انتصف الليل فليسعد الله مساءك ويبقيك للمخلص

جبران خليل جبران

■ نيويورك ٢٤ كانون الثاني ١٩١٩

حضرة الأديبة الفاضلة الآنسة ماري زيادة المحترمة.

سلام على روحك الطيبة الجميلة . وبعد فقد استلمت اليوم أعداد المقتطف التي تفضلت بإرسالها إليّ فقرأت مقالاتك الواحدة أثر الأخرى وأنا بين السرور العميق والإعجاب الشديد .

ولقد وجدت في مقالاتك سرباً من تلك الميول والمنازع التي طالما حامت حول فكرتي وتتبعت أحلامي ولكن هناك مبادئ ونظريات أخرى وددت لو كان بامكاننا البحث فيها شفاها . فلو كنت الساعة في القاهرة لاستعطفتك لتسمحي لي بزيارتك فنتحدث مليا في « أرواح الأمكنة » وفي « العقل والقلب » وفي بعض مظاهر « هنري برغسن» (هنري برغسن فيلسوف فرنسي حاز على جائزة نوبل عام ١٩٢٧ وهو صاحب نظرية الروحانية ضد هجمات المذاهب المادية . من مؤلفاته « المادية والذاكرة» و « التطور والأخلاق» .) غير أن القاهرة في مشارق الأرض ونيويورك في مغاربها وليس من سبيل إلى الحديث الذي أوده وأتمناه.

إن مقالاتك هذه تبين سحر مواهبك وغزارة إطلاعك وملاحة ذوقك في الانتقاء والانتخاب وعلاوة على ذلك فهي تبين بصورة جلية اختباراتك النفسية الخاصة – وعندي أ الاختبار أو الاقتناع النفسي يفوق كل علم وكل عمل – وهذا ما يجعل مباحثك من أفضل ما جاء من نوعها في اللغة العربية.

ولكن لي سؤال استأذنك بطرحه لديك وهو هذا : ألا يجيء يوم يا ترى تنصر فيه مواهبك السامية من البحث في مآتي الأيام إلى إظهار أسرار نفسك واختباراتها الخاصة ومخبآتها النبيلة ؟ أفليس الابتداع أبقى من البحث في المبدعين ؟ ألا ترين أن نظم قصيدة أو نثرها أفضل من رسالة في الشعر و الشعراء ؟ إني كواحد من

المعجبين بك أفضل أن اقرأ لك قصيدة في ابتسامة أبي الهول مثلا من أن أقرأ لك رسالة في تاريخ الفنون المصرية وكيفية تدرجها من عهد إلى عهد ومن دولة إلى دولة لأن بنظمك قصيدة في ابتسامة أبي الهول تهبيني شيئاً نفسياً ذاتياً أما بكتابتك رسالة في تاريخ الفنون المصرية فانك تدلينني على شيء عمومي عقلي . وكلامي هذا لا ينفي كونك تستطيعين اظهار اختباراتك النفسية الذاتية في كتابة تاريخ الفنون المصرية بيد أني أشعر بأن الفن – والفن اظهار ما يطوف ويتمايل ويتجوهر في داخل الروح– هو أحرى وأخلق بمواهبك النادرة من البحث – والبحث اظهار ما يطوف ويتمايل ويتجوهر في الاجتماع . ليس ما تقدم سوى شكل من الاستعطاف باسم الفن.

فأنا استعطفك لأني أريد أن استميلك إلى تلك الحقول السحرية حيث سافو (شاعرة اغريقية ولدت في مدينة ليزبوس في أوائل القرن السادس قبل الميلاد لها تسع دواوين من الشعر الغنائي والاناشيد لم يصلنا منها سوى بضع قصائد) وايليزبيت براوننغ) شاعرة بريطانية مبدعة تمتاز قصائدها بالعمق والرقة والنزعة الصوفية . وهي زوج الشاعر الانكليزي روبيرت براوننغ الذي أحبها من خلال قصائدها قبل أن يتعرف إليها ثم زارها في بيتها فأحبته حباً عارماً جعلها تتغلب على مرض عضال كان قد أقعدها (. وأليس شراينر (كاتبة انكليزية دعت في مؤلفاتها إلى تحرير النساء) وغيرهن من أخواتك اللواتي بنين سلّما من الذهب والعاج بين الأرض والسماء.

أرجوك أن تثقي بإعجابي وأن تتفضلي بقبول احترامي الفائق والله يحفظك للمخلص.

جبران خليل جبران

■ نيويورك في ٧ شباط ١٩١٩

عزيزتي الآنسة مي.

لقد أعادت رسالتك إلى نفسي ذكرى ألف ربيع وألف خريف وأوقفتني ثانية أمام تلك الأشباح التي كنا نبتدعها ونسيرها موكباً إثر موكب . تلك الأشباح التي ما ثار البركان (يقصد بذلك الحرب العالمية الأولى) في أوربا حتى انزوت محتجبة بالسكوت – وما أعمق ذلك السكوت وما أطوله.

هل تعلمين يا صديقتي أنني كنت أجد في حديثنا المتقطع التعزية والأنس والطمأنينة وهل تعلمين بأنني كنت أقول لذاتي هناك في مشارق الأرض صبية ليست كالصبايا قد دخلت الهيكل قبل ولادتها ووقفت في قدس الأقداس فعرفت السر العلوي الذي تخفره جبابرة الصباح ثم اتخذت بلادي بلاداً لها وقومي قوماً لها هل تعلمين بأنني كنت أهمس هذه الأنشودة في إذن خيالي كلما وردت عليّ رسالة منك ؟ لو علمت لما انقطعت عن الكتابة إليّ- وربما علمت فانقطعت وهذا لا يخلو من أصالة الرأي والحكمة.

أما مقالة أبي الهول فالسماء تعلم بأنني لم أطلبها منك إلا بعد إلحاح مستمر من صاحب مجلة الفنون – سامحه الله . فان من طبعي استهجان اقتراح المواضيع على الأدباء خصوصاً تلك الفئة القليلة التي لا تدون إلا ما توحيه الحياة إليها – وأنت من تلك الفئة القليلة – وفوق ذلك فأنا أعلم أن الفن يطلب ولا يطلب منه وأن في نفس اقتراح المواضيع شيئاً مانعاً عن الإجادة فيها فلو كتبت إلي في ذلك الزمن قائلة « لا ميل لي الآن إلى كتابة مقالة في أبي الهول » لقلت مترنماً:

«لتعش ميّ طويلا فهي ذات مزاج فني لا غش فيه » الخلاصة أنني سأسبقك في كتابة مقالة في ابتسامة أبي الهول ! وبعد ذلك سأنظم قصيدة في ابتسامة ميّ ولو كان

لدي صورتها مبتسمة لفعلت اليوم ولكن عليّ أن أزور مصر لأرى ميّ وابتسامتها . وماذا عسى أن يقول الكاتب في ابتسامة المرأة؟ أفلم يقل ليوناردو دافنشي آخر كلمة في الموضع عندما انتهى من صورة « لا جوغندا » ؟ ولكن أليس في ابتسامة الصبية اللبنانية سر لا يستطيع ادراكه واعلانه غير اللبناني أم هي المرأة لبنانية كانت أم إيطالية تبتسم لتخفي أسرار الأبدية وراء ذلك النقاب الرقيق الذي تحوكه الشفاه.

والمجنون «أول مؤلفات جبران باللغة الانكليزية» وماذا يا ترى أقول لك عن المجنون ؟ أنت تقولين أن فيه ما يدل على « القسوة» بل وعلى « الكهوف المظلمة» . وأنا الآن لم أسمع مثل هذا الانتقاد مع انني قرأت الكثير مما نشرته جرائد ومجلات اماركا وانكلترا في هذا الكتاب الصغير . والغريب أن أكثر الأدباء الغربيين قد استحسنوا القطعتين My Minds: و The Sleep Walkers مقالتان لجبران عقلي والسائرون في نومهم واستشهدوا بهما أو ذكروهما بصورة خاصة . أما أنت يا صديقتي فقد وجدت فيهما القسوة – وماذا ينفع الانسان إذا ربح استحسان العالم وخسر استحسان ميّ ؟ وقد يكون ارتياح هؤلاء الغربيين إلى المجنون واخيلته ناتجاً عن مللهم أخيلة نفوسهم وعن ميلهم الطبيعي إلى الغريب والغير مألوف خصوصاً إذا كان شرقي المظاهر . أما تلك الأمثال والقصائد المنثورة التي نشرت في الفنون فقد ترجمها عن الأصل الانكليزي أديب محبته لي أوسع قليلا من معرفته بدقائق البيان الانكليزي .

ولقد رسمت بالحبر الأحمر دائرة حول لفظة « اشمئزاز» التي جاءت في كلامك عن المجنون فعلت ذلك لعلمي بأنك إذا وضعت كلمات

The Sleep Walkers بين شفاه الأمس والغد بدلا من وضعها على لسان آم وابنتها لأبدلت لفظة الاشمئزاز بلفظة أخرى – أليس كذلك ؟.

وماذا أقول عن كهوف روحي ؟ تلك الكهوف التي تخيفك – اني التجئ إليها عندما أتعب من سبل الناس الواسعة وحقولهم المزهرة وغاباتهم المتعرشة. إني أدخل كهوف روحي عندما لا أجد مكاناً آخر أسند إليه رأسي ولو كان لبعض من أحبهم الشجاعة لدخول تلك الكهوف لما وجدوا فيها سوى رجل راكع على ركبتيه وهو يصلي.

أما استحسانك الرسوم الثلاثة في المجنون فقد سرني ودلني على وجود عين ثالثة بين عينيك وقد طالما عرفت أن وراء أذنيك آذان خفية تسمع تلك الأصوات الدقيقة الشبيهة بالسكوت – تلك الأصوات التي لا تحدثها الشفاه والألسنة بل ما وراء الألسنة والشفاه من الوحدة العذبة والألم المفرح والشوق إلى ذلك العالم البعيد الغير معروف.

وأنت تسألين ما إذا كنت أريد أن يفهمني أحد بعد قولي:

For those who understand us enslave something in us

«لأن الذين يدركون خبايا نفوسنا يأسرون شيئا منها»

لا لا أريد أن يفهمني بشري إذا كان فهمه إياي ضرباً من العبودية المعنوية . وما أكثر الذين يتوهمون أنهم يفهموننا لأنهم وجدوا في بعض مظاهرنا شيئاً شبيهاً بما اختبروه مرة في حياتهم . وليتهم يكتفون بادعائهم ادراك أسرارنا – تلك الأسرار التي نحن ذواتنا لا ندركها – ولكنهم يصمموننا بعلامات وأرقام ثم يضعوننا على رف من رفوف أفكارهم واعتقاداتهم مثلما يفعل الصيدلي بقناني الأدوية والمساحيق ! أوليس ذلك الأديب الذي يقول بأنك تقليديني في بعض كتاباتك من هؤلاء البشر الذين يدعون فهمنا ومعرفة خفايانا؟ وهل تستطيعين اقناعه بأن الاستقلال هو محجة الأرواح وإن أشجار السنديان والصفصاف لا تنمو في ظلال بعضها البعض ؟

ها قد بلغت هذا الحد من رسالتي ولم أقل كلمة واحدة مما قصدت أن أقوله عندما ابتدأت . ولكن من يا ترى يقدر أن يحول الضباب اللطيف إلى تماثيل وانصاب ؟ ولكن الصبية اللبنانية التي تسمع ما وراء الأصوات سترى في الضباب الصور والأشباح.

والسلام على روحك الجميلة ووجدانك النبيل وقلبك الكبير والله يحرسك.

المخلص

جبران خليل جبران

■■■

obeikan.com

■ نيويورك ١١ حزيران ١٩١٩

عزيزتي الآنسة ميّ.

رجعت اليوم من سفره مستطيلة إلى البرية فوجدت رسائلك الثلاث والمقال الجميل الذي تفضلت بنشره في جريدة المحروسة . ولقد علمت من خادمي أن هذه الرسائل بل هذه الثروة الجليلة قد وصلت معاً منذ أربعة أيام . الظاهر أن البريد المصري قد توقف عن اصدار الرسائل من القطر مثلما حجز الرسائل الواردة إليه.

ولقد انصرفت عن كل ما وجدته بانتظاري في هذا المكتب لأصرف نهاري مصغياً إلى حديثك الذي يتمايل بين العذوبة والتعنيف – أقول التعنيف لأنني وجدت في رسالتك الثانية بعض الملاحظات التي لو سمحت لنفسي الفرحة أن تتألم لتألمت منها . ولكن كيف اسمح لنفسي النظر إلى شبه سحابة في سماء صافية مرصعة بالنجوم ؟ وكيف أحول عيني عن شجرة مزهرة إلى ظلّ من أغصانها ؟ وكيف لا أقبل وخزة صغيرة من يد عطرة مفعمة بالجواهر ؟

إن حديثنا الذي أنقذناه من سكوت خمسة أعوام لا ولن يتحول إلى عتاب أو مناظرة فأنا أقبل بكل ما تقولينه لاعتقادي بأنه يجمل بنا وسبعة آلاف ميل تفصلنا ألا نضيف فتراً واحداً إلى هذه المسافة الشاسعة بل أن نحاول تقصيرها بما وضعه الله فينا من الميل إلى الجميل والشوق إلى المنبع والعطش إلى الخالد . يكفينا يا صديقتي ما في هذه الأيام وهذه الليالي من الأوجاع والتشويش والمتاعب والمصاعب . وعندي أن فكرة تستطيع الوقوف أمام المجرد المطلق لا تزعجها كلمة جاءت في كتاب أو ملاحظة أتت في رسالة. إذا فلنضع خلافاتنا وأكثرها لفظية – في صندوق من ذهب ولنرمي بها إلى بحر من الابتسامات.

ما أجمل رسائلك يا ميّ وما أشهاها فهي كنهر من الرحيق يتدفق من الأعالي

ويسير مترنماً في وادي أحلامي بل هي كقيثارة اورفيوس (شاعر وموسيقي تحدثت عنه أساطير اليونان سحر بأنغامه وحش الغاب وآلهة الجحيم .) تقرب البعيد وتبعد القريب وتحول بارتعاشاتها السحرية الحجارة إلى شعلات متقدة والأغصان اليابسة إلى أجنحة مضطربة . إن يوماً يجيئني منك برسالة واحدة لهو من الأيام بمقام القمة من الجبل فما عسى أن أقول في يوم يجيئني بثلاث رسائل ؟ ذلك يوم انتحى فيه عن سبل الزمن لأصرفه متجولا في إرم ذات العماد.

وبما أجيب على سؤالاتك ؟ وكيف أستطيع متابعة الحديث وفي النفس مالا يسيل مع الحبر ؟

ولكن لا بد من متابعة الحديث . فما بقي صامتاً ليس بالغير مفهوم لديك.

تقولين في رسالتك الأولى « لو كنت أنا في نيويورك لكنت زرت مكتبك الفني في هذه الأيام » أفلم تزوري مكتبي قط ؟ أليس رواء أثواب الذكرى الظاهرة جسد خفي للذكرى ؟ انما مكتبي هيكلي وصديقي ومتحفي وجنتي وجحيمي . هو غاب تنادي فيه الحياة الحياة وهو صحراء خالية أقف في وسطها فلا أرى سوى بحر من رمال وبحر من أثير . إن مكتبي يا صديقي هو منزل بدون جدران وبدون سقف.

ولكن في مكتبي هذا أشياء كثيرة أحبها وأحافظ عليها . أنا مولع بالآثار القديمة وفي زوايا هذا المكتب مجموعة صغيرة من طرائف الأجيال وبعض نفائسها كتماثيل وألواح مصرية ويونانية ورومانية وزجاج فينيقي وخزف فارسي وكتب قديمة العهد ورسوم ايطالية وفرنسية وآلات موسيقية تتكلم وهي صامتة . ولا بد من الحصول يوما ما على تمثال كلداني من الحجر الأسود . إني أميل بكليتي إلى كل شيء كلداني فأساطير هذا الشعب وشعره وصلواته وهندسته بل وأصغر أثر أبقاه الدهر من فنونه وصنائعه ينبّه في داخلي تذكارات غامضة بعيدة ويعود بي إلى الماضي الغابر

ويجعلني أرى الحاضر من نافذة المستقبل . أحب الآثار القديمة وأشغف بها لأنها من أثمار الفكرة البشرية السائرة بألف قدم من الظلام نحو النور – تلك الفكرة الخالدة التي تغوص بالفن إلى أعماق البحار وتصعد به إلى المجرة.

أما قولك « ما أسعدك أنت القانع بفنك » فقد جعلني أفتكر طويلاً لا يا ميّ لست بقانع ولا أنا بسعيد . في نفسي شيء لا يعرف القناعة ولكنه ليس كالطمع ولا يدري ما السعادة غير أنه لا يشابه التعاسة . في أعماقي خفقان دائم وألم مستمر ولكنني لا أريد ابدال هذا ولا تغيير ذاك – ومن كان هذا شأنه فهو لا يعرف السعادة ولا يدري ما هي القناعة ولكنه لا يشكو لأن في الشكوى ضرباً من الراحة وشكلاً من التفوق.

وهل أنت سعيدة وقانعة بمواهبك العظيمة ؟ أخبريني يا ميّ هل أنت قانعة وسعيدة ؟ أكاد أسمعك هامسة : « لا لست بقانعة ولا أنا بسعيد » إن القناعة هي الاكتفاء والاكتفاء محدود وأنت غير محدودة.

أما السعادة فهي أن يملأ المرء نفسه من خمرة الحياة ولكن من كان كأسه سبعة آلاف فرسخ بالطول و سبعة آلاف فرسخ بالعرض لا ولن يعرف السعادة حتى تنسكب الحياة بكاملها في كأسه . أفليس كأسك يا ميّ سبعة آلاف فرسخ وفرسخ ؟

وماذا أقول عن « جوي المعنوي؟» لقد كانت حياتي منذ عام أو عامين لا تخلو من الهدوء والسلامة أما اليوم فقد تبدل الهدوء بالضجيج والسلامة بالنزاع . إن البشر يلتهمون أيامي ولياليّ ويغمرون أحلامي بمنازعهم ومراميهم فكم مرة هربت من هذه المدينة الهائمة إلى مكان قصيّ لأتخلص من الناس ومن أشباح نفسي أيضاً . إنما الشعب الأماركي جبار لا يكل ولا يمل ولا يتعب ولا ينام ولا يحلم فإذا بغض هذا الشعب رجلا قتله بالإهمال وإذا أحبه قتله بالانعطاف فمن شاء أن يحيى في

نيويورك عليه أن يكون سيفاً سنيناً ولكن في غمد من العسل : السيف لروع الراغبين في قتل الوقت والعسل لارضاء الجائعين!

وسوف يجيء يوم أهرب فيه إلى الشرق . إن شوقي إلى وطني يكاد يذيبني ولولا هذا القفص الذي حبكت قضبانه بيدي – لاعتليت متن أول سفينة سائرة شرقاً . ولكن أي رجل يستطيع أن يترك بناءً صرف عمره بنحت حجارته وصفّها ؟ حتى وإن كان ذلك البناء سجناً له فهو لا يقدر أو لا يريد أن يتخلص منه في يوم واحد.

سامحيني أيتها الصديقة العزيزة فقد أزعجتك بالكلام عن نفسي وبشكواي من أمور أدعى إلى الجهاد منها إلى التذمر.

إن استحسانك « المواكب» قد جعلها عزيزة لديّ . أما قولك بأنك ستستظهرين أبياتها فمنّة أحني أمامها رأسي غير أنني أشعر بأن حافظتك خليقة بقصائد أسمى وأبلغ وأنبل من كل ما جاء في المواكب بل ومن كل ما كتبته وأكتبه . وأما قولك في رسوم الكتاب « أنتم أهل الفن تبرزون هذه البدائع بقوى أثيرية احتفظتكم عليها ملوك الجوزاء فنأتي بغباوتنا أشقياء مظلومون ونحن بها أشقياء خاسرون » فكلام لا أقبله بل إني استميحك بالتمرد عليه و (ما أكثر تمردي) – أنت يا ميّ منا وفينا . بل وأنت بين بنات الفن وأبنائه كالوردة بين أوراقها . إن ما جاء في مقالتك التي نشرت في » المحروسة» عن رسوم المجنون لأكبر دليل على شعور فني عميق وفكرة خاصة دقيقة وبصيرة نفاذة ترى ما لا يراه غير القليل من الناس . ولست بمبالغ إذا قلت بأنك أول صبية شرقية مشت في غابة « الأخوات التسع » (إشارة إلى الآلهات التسع في الميثولوجيا الاغريقية المشرفات على الآداب والفنون وقد عرفن بأسماء عديدة في عصور التاريخ القديم .) بقدم ثانية ورأس مرفوع وملامح منفرجة كأنها في بيت أبيها . ألا فأخبريني كيف عرفت كل ما تعرفين وفي أي عالم جمعت خزائن نفسك وفي أي

عصر عاشت روحك قبل مجيئها إلى لبنان ؟ إن في النبوغ سراً أعمق من سر الحياة.

وأنت تريدين أن تسمعي ما يقوله الغربيون عني فألف شكر لك على هذه الغيرة وهذا الاهتمام القومي . لقد قالوا الشيء الكثير وكانوا مبالغين في أقوالهم متطرفين في ظنونهم متوهمين وجود الجمل في وكر الأرنب . ويعلم الله يا صديقتي بأنني ما قرأت شيئاً حسناً عني إلا ونحت في قلبي . إن الاستحسان نوع من المسؤولية يضعها الناس على عواتقنا فتجعلنا نشعر بضعفنا . ولكن لا بد من المسير حتى ولو قوّص الحمل الثقيل ظهورنا ولا بد من استنباط القوة من الضعف . أنا باعث إليك في غلاف آخر بشيء من أقوال الجرائد والمجلات وستعلمين منها أن الغربيين قد ملوا أشباح أرواحهم وضجروا من ذواتهم فأصبحوا يتمسكون بالغريب الغير مألوف خصوصاً إذا كان شرقياً . هكذا كان الشعب الأثيني بعد انقضاء عصره الذهبي . لقد بعثت منذ شهر أو أكثر بمجموعة من أقوال الصحف في المجنون إلى اميل زيدان (تولى رئاسة تحرير مجلة الهلال سنة ١٩١٤ التي أسسها والده الأديب العلامة جرجي زيدان .) وهو بالطبع من أصدقائك.

أحمد الله وأشكره على انقضاء الأزمة عندكم . ولقد كنت أقرأ أخبار تلك المظاهرات فأتخيلك هائبة فأهاب مضطربة فاضطرب . ولكنني كنت أردد في الحالين قول شكسبير:

Do not fear our person .There's such divinity doth hedge a king That treason can but peep to what it would Acts little of his will .

لا تخافي منا

فالملك تحيط به هالة من القداسة

وليس في مقدور الخيانة

أن تبلغ ما ترمي إليه

أو تحد من عزيمته

وأنت يا ميّ من المحروسين وفي نفسك مَلَكٌ يحميه الله من كل مكروه.

وتسألين ما اذا كان لكم من صديق في ربوعنا ؟

أي والحياة وما في الحياة من حلاوة جارحة ومرارة مقدسة إن لكم في ربوعنا صديقاً إرادته تدافع عنكم ونفسه ترغب في الخير لكم وابعاد السوء عنكم وتحميكم من كل أذى . وقد يكون الصديق الغائب أدنى وأقرب من الصديق الحاضر . أفليس الجبل أكثر هيبة وأشد وضوحاً وظهوراً لسائرٍ في السهل منه لساكنيه ؟

ها قد غمر المساء هذا المكتب بوشاحه فلم أعد أرى ما تخطه يدي . وألف تحية لك وألف سلام عليك والله يحفظك ويحرسك دائماً.

صديقك المخلص

جبران خليل جبران

obeikan.com

■ نيويورك ٢٥ تموز ١٩١٩

عزيزتي الآنسة ميّ

منذ كتبت إليك حتى الآن وأنتِ في خاطري . ولقد صرفت الساعات الطوال مفكراً بكِ مخاطباً إياكِ مستجوباً خفاياك مستقصياً أسرارك . والعجيب أنني شعرت مرات عديدة بوجود ذاتك الأثيرية في هذا المكتب ترقب حركاتي وتكلمني وتحاورني وتبدي رأيها في مآتيَّ وأعمالي.

أنت بالطبع تستغربين هذا الكلام وأنا أستغرب حاجتي واضطراري إلى كتابته إليك . وحبذا لو كان بامكاني معرفة ذلك السر الخفي الكائن وراء هذا الاضطراب وهذه الحاجة الماسة.

قد قلت لي مرةً « ألا إن بين العقول مساجلةً وبين الأفكار تبادلاً قد لا يتناوله الإدراك الحسي ولكن من ذا الذي يستطيع نفيه بتاتاً من بين أبناء الوطن الواحد ؟»

إن في هذه الفقرة الجميلة حقيقة أولية كنت فيما مضى أعرفها بالقياس العقلي أما الآن فإني أعرفها بالاختيار النفسي . ففي الآونة الأخيرة قد تحقق لي وجود رابطة معنوية دقيقة قوية غريبة تختلف بطبيعتها ومزاياها وتأثيرها عن كل رابطة أخرى فهي أشد وأصلب وأبقى بما لا يقاس من الروابط الدموية والجينية حتى والأخلاقية . وليس بين خيوط هذه الرابطة خيط واحد من غزل الأيام والليالي التي تمر بين المهد واللحد . وليس بين خيوطها خيط غزلته مقاصد الماضي أو رغائب الحاضر أو أماني المستقبل فقد تكون موجودة بين اثنين لم يجمعهما الماضي ولا يجمعهما الحاضر – وقد لا يجمعهما المستقبل.

وفي هذه الرابطة يا ميّ في هذه العاطفة النفسية في هذا التفاهم الخفي أحلام أغرب وأعجب من كل ما يتمايل في القلب البشري – أحلام طيّ أحلام طيّ أحلام.

وفي هذا التفاهم يا « ميّ» أغنية عميقة هادئة نسمعها في سكينة الليل فتنتقل بنا إلى ما وراء الليل إلى ما وراء النهار إلى ما وراء الزمن إلى ما وراء الأبدية.

وفي هذه العاطفة يا ميّ غصّات أليمة لا تزول ولكنها عزيزة لدينا ولو استطعنا لما أبدلناها بكل ما نعرفه ونتخيله من الملذات والأمجاد.

لقد حاولت في ما تقدم ابلاغك ما لا ولن يبلغك إياه إلا ما يشابهه في نفسك . فإن كنت قد أبنت سراً معروفاً لديك كنت من أولئك الذين قد حبتهم الحياة وأوقفتهم أمام العرش الأبيض . وإن كنت قد أبنت أمراً خاصاً بي وحدي فلكِ أن تطعمي النار هذه الرسالة.

استعطفك يا صديقتي أن تكتبي إليَّ واستعطفك أن تكتبي إليَّ بالروح المطلقة المجردة المجنحة التي تعلو فوق سبل البشر . أنت وأنا نعلم الشيء الكثير عن البشر وعن تلك الميول التي تقربهم إلى بعضهم البعض وتلك العوامل التي تبعد بعضهم عن البعض . فهلا تنحينا ولو ساعة واحدة عن تلك السبل المطروقة ووقفنا محدقين ولو مرة واحدة بما وراء الليل بما وراء النهار بما وراء الزمن بما وراء الأبدية ؟

والله يحفظك يا ميّ ويحرسك دائماً

صديقك المخلص

جبران خليل جبران

Oberkan.com

■ نيويورك ٩ تشرين الثاني ١٩١٩

عزيزتي الآنسة مي

أنتِ حاقدة عليّ ناقمة عليّ ولك الحق ومعك الحق وما عليّ سوى الامتثال فهلا نسيت إثماً اقترفته وأنا بعيد عن عالم المقاييس والموازين ؟ هلا وضعت في « صندوق الذهب» ما لا يستحق الحفظ في الصندوق الأثيري ؟

إن ما يعرفه الحاضر يجهله الغائب وليس من العدالة أن تحسب جهل الغائب جريمة فالجرائم لا تكون الا في موضع الإدراك والمعرفة وأنا لا أريد أن أسكب سهواً قليلاً من الرصاص المذوب أو الماء الغالي على أصابع العارفين المدركين لعلمي أن الجريمة نفسها عقاب المجرمين وأن مصائب أكثر الناس في ما أسند إليهم من الأعمال.

لقد استأنست بذلك العنصر الشفاف الذي تتلاشى أمامه المسافة والحدود والحواجز والنفس المستوحشة لا تستأنس إلا بذلك العنصر ولا تستصرخ سواه ولا تستنجد غيره . وأنتِ -- أنتِ التي تعيشين كثيراً في عالم المعنى تعلمين أن العنصر الشفاف فينا يتنحى عن جميع أعمالنا ويبتعد حتى وعن أجمل ميولنا البيانية وأنبل رغائبنا الفنية فهو وإن جاور الشاعرية فينا لا ينظم ذاته نشيداً غنائياً ولا يضع خفاياه في الخطوط والألوان . كل بشري يستطيع التكلف بمنازعه واللعب بمطامعه والمتاجرة بأفكاره ولكن ليس بين البشر من يستطيع التكلف بوحشته أو اللعب بألمه أو المتاجرة بجوعه وعطشه . ليس بين الناس من يقدر أن يحول أحلامه من صورة إلى صورة أو ينقل أسرار نفسه من مكان إلى مكان . وهل بإمكان الضعيف والصغير فينا أن يؤثر على القوي والعظيم فينا ؟ هل بإمكان الذات المقتبسة وهي من الأرض أن تحور وتغير الذات الوضعية وهي من السماء ؟ إن تلك

الشعلة الزرقاء تنير ولا تتغير وتحول ولا تتحول وتأمر ولا تأتمر . وهل تظنين حقيقةً وأنت أبعد الناس فكراً أن « التهكم الدقيق » ينبت في حقل يفلحه الألم وتزرعه الوحشة ويحصده الجوع والعطش ؟ هل تظنين أن «النكتة الفلسفية » تسير بجانب الميل إلى الحقيقة والرغبة في المجرد المطلق ؟ لا يا صديقتي أنت أرفع من الشك والارتياب . الشك يلازم الخائفين السلبيين والارتياب يلاحق من ليس لهم الثقة بنفوسهم أما أنت فقوية إيجابية ولكِ الثقة التامة بنفسك فهلا كنتِ مؤمنة بكل ما تضعه الأيام في راحتيك ؟ هلا حولتِ عينيكِ عن المظاهر الجميلة إلى الحقيقة الجميلة ؟

قد صرفت شهور الصيف في منزل منفرد منتصب كالحلم بين البحر والغاب فكنت كلما أضعت نفسي في الغاب أذهب إلى البحر فأجدها وكلما فقدتها بين الأمواج أعود إلى ظل الأشجار فألتقي بها . إن غابات هذه البلاد تختلف عن غابات الأرض كافةً فهي غضة كثيفة متعرشة تعود بالذكرى إلى الأزمنة الغابرة إلى البدء اذ كان الكلمة عند الله وكان الكلمة لله !

أما بحرنا فبحركم وذلك الصوت المجنح الذي تسمعونه على شواطئ مصر نسمعه نحن على هذه الشواطئ وذلك القرار الرهاوي الذي يملأ صدوركم بهيبة الحياة وهولها يملأ صدرنا بهول الحياة وهيبتها . لقد أصغيت إلى نغمة البحر في مشارق الأرض ومغاربها فكانت ولم تزل هي هي الأغنية الأزلية الأبدية التي تعلو وتهبط بالروح فتكسبها تارةً الحزن وطوراً الطمأنينة . لقد أصغيت إلى تلك النغمة حتى وعلى رمال الإسكندرية – نعم على رمال الإسكندرية – وكان ذلك في صيف ١٩٠٣ فسمعت اذ ذاك حديث الدهور من بحر المدنية القديمة مثلما سمعته بالأمس من بحر المدنية الحديثة ذلك الحديث الذي سمعته للمرة الأولى وأنا في الثامنة

فاحترت بأمري وألبست عليّ حياتي فأخذت أحارب بسؤالاتي الكثيرة صبر المرحومة أمي وجلدها ذلك الحديث الذي أسمعه اليوم فأطرح السؤالات ذاتها ولكن على الأم الكلية فتجيبني بغير الكلام وتفهمني أموراً كلما حاولت إظهارها للآخرين تحولت الألفاظ في فمي إلى سكوت عميق . أنا اليوم وقد صرت في (الثمانين؟؟؟؟) مثلما كنت وأنا في الثامنة أجلس على شط البحر وأنظر إلى أبعد نقطة من الأفق الأزرق وأسأل ألف سؤال وسؤال : «

ترى هل لنا من مجيب في ربوعكم ؟» ترى هل تتفتح الأبواب الدهرية ولو لدقيقة واحدة لنرى ما ورائها من الأسرار والخفايا ؟ أليس بامكانكم أن تقولوا لنا كلمة واحدة عن تلك الأنظمة السرية النافذة حولنا في الحياة قبل أن يضع الموت نقابه الأبيض على وجوهنا ؟« وأنت تسألين ما إذا كنت لا أستطيب الفائدة في التفكهة بلا اجهاد « إني أستطيب الفائدة أستطيبها إلى درجة قصوى ولكن بعد أن أترجم لفظها إلى لغتي الخاصة !!! أما الاجهاد فسلّم نصعد عليه لنبلغ العليّة . أنا بالطبع أفضل الصعود إلى عليتي طائراً ولكن الحياة لم تعلّم جانحيّ الرفرفة والطيران فماذا أفعل ؟ وأنا أفضل الحقيقة الخفية على الحقيقة الظاهرة وأفضل الحاسة الصامتة اكتفاءً واقتناعاً على الحاسة التي تحتاج إلى التفسير والتعليل . غير أنني وجدت أن السكوت العلوي يبتدئ دائما بكلمة علوية.

إني أستطيب الفائدة بل وأستطيب كل شيء في الحياة إلا الحيرة فإذا جاءت الفائدة وعلى منكبيها غمر من الحيرة أغمضت عينيَّ وقلت في سري » هذا صليب آخر علي أن أحمله مع المئة صليب التي أحملها « وليست الحيرة بذاتها من الأمور المكروهة ولكنني قد رافقتها حتى مللتها – قد أكلتها خبزاً وشربتها ماءً وتوسدتها فراشاً ولبستها رداءً حتى صرت أتبرم من لفظ اسمها وأهرب من ظل ظلها».

أظن أن مقالتك في « المواكب» هي الأولى من نوعها باللغة العربية . هي أول بحث في ما يرمي إليه الكاتب بوضع كتاب . حبذا لو كان بإمكان أدباء مصر وسوريا أن يتعلموا منكِ استجواب أرواح الكتب دون أجسادها واستفسار ميول الشعراء النفسية قبل استقصاء مظاهر الشعر الخارجية . يجب عليّ أن لا أحاول اظهار امتناني الشخصي على تلك المقالة النفيسة لأنني أعلم أنها كتبت وأنت منصرفة عن كل شيء شخصي . وإذا ما حاولت اظهار امتناني القومي بصورة عمومية أوجب عليّ ذلك كتابة مقالة في تلك المقالة وهذا أمر يحسبه الشرقيون في الوقت الحاضر من الأمور التي لا تجاور الذوق السليم ! ولكن سيجيء يوم أقول فيه كلمتي في « مي » ومواهبها وستكون كلمتي هائلة ! وستكون طويلة عريضة ! وستكون صادقة لأنها ستكون جميلة.

إن الكتاب الذي سيصدر في هذا الخريف هو كتاب رسوم خالٍ من « ضجيج التمرد والعصيان .» ولولا إضراب العمال في المطابع لظهر منذ ثلاثة أسابيع . وفي السنة القادمة سيصدر كتابان الأول « المستوحد » وربما دعوته باسم آخر « وهو مؤلف من قصائد وأمثال والثاني كتاب رسوم رمزية باسم « نحو الله « وبهذا الأخير انتهي من عهد وابتدئ بعهد آخر . وأما « النبي » فكتاب فكرت به منذ ألف سنة ولكنني لم أكتب فصلاً من فصوله حتى أواخر السنة الغابرة . وماذا عسى أقول لك عن هذا النبي ؟ هو ولادتي الثانية ومعموديتي الأولى . هو الفكرة الوحيدة التي تجعلني حرياً بالوقوف أمام وجه الشمس . ولقد وضعني هذا النبي قبل أن أحاول وضعه وألفني قبل أن أفكر بتألفيه وسيرني صامتاً وراءه سبعة آلاف فرسخ قبل أن يقف ليملي عليّ ميوله ومنازعه.

أرجوك أن تسألي رفيقي ومعاوني العنصر الشفاف عن هذا النبي وهو يقص

عليك حكايته . اسألي العنصر الشفاف اسأليه في سكينة الليل عندما تنعتق النفس من قيودها وتتملص من أثوابها وهو يبوح لكِ بأسرار هذا النبي وبخفايا من تقدمه من الأنبياء أجمعين.

أنا أعتقد يا صديقي أن في العنصر الشفاف من العزم ما لو وضعنا ذرةً منه تحت جبل لانتقل من مكان إلى مكان آخر واعتقد بل واعلم أننا نستطيع أن نمد ذلك العنصر سلكاً بين بلاد وبلاد فنعلم بواسطته كل ما نريد أن نعلمه ونحصل على كل ما نشوق إليه ونبتغيه.

ولدّي أمور كثيرة أريد أن أقولها عن العنصر الشفاف وغيره من العناصر ولكن عليّ أن أبقى صامتاً عنها . وسوف أبقى صامتاً حتى يضمحل الضباب وتنفتح الأبواب الدهرية ويقول لي ملاك الرب « تكلم فقد ذهب زمن الصمت وسر فقد طال وقوفك في ظلال الحيرة».

أي متى يا ترى تنفتح الأبواب الدهرية ؟ هل تعلمين ؟ هل تعلمين أي متى تتفتح الأبواب الدهرية ويضمحل الضباب ؟

والله يحفظك يا « مي» ويحرسك دائماً

المخلص

جبران خليل جبران

■ نيويورك ١٥ تشرين الثاني ١٩١٩

وفي ١٥ تشرين الثاني ١٩١٩ تلقت مي زيادة رسالة يحمل مغلفها التاريخ الآنف الذكر كانت عبارة عن بطاقة دعوة لمعرض فني كبير أقيم في نيويورك لفنانين أجانب وأميركان . وقد كتب جبران على تلك البطاقة إلى مي العبارة التالية:

«هذه دعوة إلى وليمة فنية فهلا تكرمت وشرّفتينا»

■ نيويورك ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٩

وبعد أسبوعين أي بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٩ استنادا إلى ختم البريد في مصر المسجل على المغلف تلقت مي رسالة أخرى تتضمن دعوة من نادي « ماكدويل» في نيويورك كما هو واضح في الصورة اللاحقة لحضور أمسية فنية أدبية في ٢ كانون الأول ١٩١٩ يقرأ فيها جبران بعضاً من حكاياته وأمثاله وينشد فيها « ويتر باينرز » بعضاً من أناشيده وقد كتب جبران على هامش البطاقة بالانكليزية ما يلي :

Would that you were here to lend wings to my voice and turn my mutterings into songs . Yet I shall read knowing that among the " strangers" an invisible " friend" is listening and smiling sweetly and tenderly

«حبذا لو كنت هنا لتعيري أجنحة إلى صوتي وتحيلي همهماتي إلى تراتيل . ومع ذلك فسوف أقرأ وأنا واثق أن لي بين الغرباء صديقاً لايُرى يسمعني ويبتسم لي بعذوبة وحنان ».

■ ■ ■

■ نيويورك ٢٨ كانون الثاني ١٩٢٠

عزيزتي الآنسة مي

تريدين أن تعلمي بالضبط معنى ندامتي وماورء طلبي المغفرة منك من الأسرار النفسية . وإليك بالضبط البسيط ما كان وسيكون وراء تلك الندامة وتلك المعاني وتلك الأسرار وتلك النفسيات.

لم أندم على كتابة تلك الرسالة المعروفة لديكِ «بالنشيد الغنائي » – ولن أندم.

لم أندم على أصغر حرف فيها لا ولا على أكبر نقطة فيها – ولن أندم.

لم أكن في ضلال لذلك لم أر داعياً للاهتداء.

وكيف يا ترى أندم على أمر موجود الآن في نفسي مثلما كان موجوداً إذ ذاك ؟

وأنا لست ممن يندمون على وضع ما في نفوسهم بين شفاههم .

ولست ممن ينفون في يقظتهم ما يثبتونه في أحلامهم لأن أحلامي هي يقظتي ويقظتي هي أحلامي لأن حياتي لا تقسم إلى خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء.

أما الاثم الذي اقترفته – أو توهمت بأني اقترفته وأنا بعيد عن عالم الموازين والكمية – فهو هذا : بعد أن قرأت كلامك عن ذلك اللبناني الذي زارك قبل مغادرتك القاهرة إلى رمال الاسكندرية – أعني ذلك الرجل الذي « بكل أسف لم تسكبي سهواً بعض قطرات من الماء الغالي على يده » معاقبة له على « أمر غير محمود» – بعد أن قرأت كلامك هذا انتبهت لشيء كان من الواجب عليَّ أن أفطن له قبل أن أضع تلك الرسالة في صندوق البريد فظننت أو تخيلت أو تصورت أن تلك الرسالة قد سببت لك بعض الانزعاج من هذه الوجهة . ومن منا لا يتأفف ويتبرم إذا علم أن الأشياء المختصة به دون سواه قد مرت بين أصابع وأمام عيون من ليس لهم الحق بمعرفتها ؟

هذا هو الأمر الذي انتبهت له فندمت وهذا هو الشيء الوحيد الذي طلبت إليك وضعه في صندوق النسيان . وقد دعوت « قلم المراقبة » والأسباب التي أوجدته والنتائج التي أوجدتها « بعالم الموازين والكمية -« دعوته بهذا الاسم لبعده عن العالم الذي كان يشغل فكري حينئذ بعد الجحيم عن غابة الحق.

ولقد عرفت في العام الغابر عن « قلم المراقبة» ما يضحك البوم بين القبور ! فقد كان بعض الفتيان الموظفين في تلك الادارة النبيلة يفتحون الرسائل الواردة إليّ من الشرق ويذيلونها بالحواشي والسلامات والتحيات والملاحظات السياسية والعمرانية والأدبية وبعضهم كان يطلب مني المال لأغراض لم أسمع بمثلها.

وأغرب من هؤلاء جميعهم مراقب في دمشق وجد فسحة بيضاء واسعة في رسالة موجهة إليّ فنمقها وطرزها بقصيدة طويلة يمدحني بها! ولو أخبرتك حكاية تلك القصيدة بتمامها لغضبت عليّ.

أما تلك الرسالة المعروفة « بالنشيد الغنائي » فهي مني وبي وفيّ وهي أنا مثلما كنت ومثلما سأكون وهي الآن مثلما كانت بالأمس ومثلما ستكون في الغد فهلا آمنت وصدقت يا توما «هو القديس توما أحد رسل المسيح الاثني عشر». لم يؤمن بقيامته الا بعد أن رأى آثار جراحاته ووضع فيها اصبعه . وهو الذي أدخل المسيحية إلى الهند . أتريدين وضع اصبعك في الجرح يا ميّ ؟

واسمحي لي أن أقول ثانية أنني أكره التهكم الدقيق والغير دقيق بين الأصدقاء وأكره النكتة الفلسفية والغير فلسفية بين المتفاهمين بالروح وأكره التكلف والتصنع في كل أمر حتى وفي الصعود إلى السماء . وأما سبب كرهي هذه الأشياء فهو ما أراه حولي في كل دقيقة من مظاهر هذه المدنية الآلية ونتائج هذا الاجتماع السائر على دواليب لأنه بدون أجنحة.

أظن أن السبب الذي يجعلك أن تعزي إليّ « التهكم الدقيق » هو بعض ما جاء في « المجنون» وإذا صح ظني أكون أول ضحايا ذلك الكتاب لأن « المجنون» ليس أنا بكليتي والأفكار والمنازع التي أردت بيانها بلسان شخصية ابتدعتها ليست كل ما لدي من الأفكار والمنازع واللهجة التي وجدتها مناسبة لميول ذلك المجنون ليست اللهجة التي اتخذها عندما أجلس لمحادثة صديق أحبه وأحترمه . ولكن إذا كان لا بد من الوصول إلى حقيقتي بواسطة ما كتبته فما عسى يمنعك عن اتخاذ فتى الغاب في كتاب « المواكب » لهذه الغاية بدلا من « المجنون» ؟ إن روحي يا مي أقرب بما لا يقاس إلى «فتى الغاب» ونغمة نايه منها إلى « المجنون» وصراخه . وسوف يتحقق لديك بأن «المجنون» لم يكن سوى حلقة من سلسلة طويلة مصنوعة من معادن مختلفة . لا أنكر أن « المجنون» كان حلقة طويلة مصنوعة من معادن مختلفة . لا أنكر أن « المجنون» كان حلقة خشنة مصنوعة من حديد ولكن هذا لا يدل على أن السلسلة بكليتها ستكون من الحديد الخشن . لكل روح فصول يا مي وشتاء الروح ليس كربيعها ولا صيفها كخريفها.

قد سررت جداً لانتسابك إلى عائلة لاويّة (نسبة إلى لاوي الابن الثالث ليعقوب وقد خرج اللاويون كهنة بني اسرائيل من سبطة) سررت إلى درجة قصوى وسبب هذا السرور الهائل هو هذا أنا ابن كاهن ماروني!! نعم فقد كان جدي والد أمي كاهنا متعمقاً بالأسرار اللاهوتية ! (بيد أنه كان مولعاً بالموسيقى الكنائسية والغير كنائسية ولهذا قد غفرت له كهنوتيته.) وقد كانت أمي أحب أبنائه إليه أشبههم به . والغريب أنها عزمت واستعدت وهي في ربيع العمر للدخول إلى دير القديس سمعان للراهبات في شمال لبنان . أما أنا فقد ورثت عن أمي تسعين بالمئة من أخلاقي وميولي «لا أقصد بذلك أنني أماثلها من حيث الحلاوة والوداعة وكبر

القلب» ومع أنني أشعر بشيء من البغضاء نحو الرهبان فأنا أحب الراهبات وأباركهن في قلبي .

وقد يكون حبي لهن ناتجاً عن تلك الرغائب السرية التي كانت تشغل خيال أمي في صباها .

وإني أذكر قولها لي مرة وقد كنت في العشرين:

- لو دخلت الدير لكان ذلك أفضل لي وللناس

فقلت لها:

- لو دخلتِ الدير لما جئت أنا.

فأجابت :

- أنت مقدّر يا ابني.

فقلت :

- نعم ولكن قد اخترتكِ أماً لي قبل أن أجيء بزمن بعيد.

فقالت :

- لو لم تجيء لبقيت ملاكاً في السماء

فقلت

- لم أزل ملاكاً

فتبسمت وقالت :

- أين جوانحك ؟

فوضعتُ يدها على كتفي قائلاً:

- هنا

فقالت: متكسرة

بعد هذا الحديث بتسعة أشهر ذهبت أمي إلى ما وراء الأفق الأزرق . أما كلمتها «متكسرة» فظلت تتمايل في نفسي ومن هذه الكلمة قد غزلت ونسجت حكاية «الأجنحة المتكسرة».

لا يامي لم أكن قط من جدود جدود أمي . لقد كانت ولم تزل أما لي بالروح . وإني أشعر اليوم بقربها مني وتأثيرها عليّ ومساعدتها لي أكثر مما كنت أشعر به قبل أن تذهب - أكثر بما لا يقاس . ولكن هذا الشعور لا ينفي الروابط الأخرى الكائنة بيني وبين أمهاتي وأخواتي بالروح وليس هناك من فرق بين شعوري نحو أمي وشعوري نحو أمهاتي سوى الفرق الموجود بين الذكرى الواضحة والذكرى الضئيلة

هذا شيء قليل عن أمي . واذا جمعتنا الأيام أخبرتك الشيء الكثير عنها وإني لا أشك بأنك ستحبينها . ستحبينها لأنها تحبك . والأرواح السابحة هناك تحب الأرواح الجميلة السائرة هنا . وأنت يا مي روح جميلة اذاً لا تستغربي قولي « إنها تحبك»

أما الوجه الآخر الذي نشر في « الفنون» فهو وجهها في حالة الألم النفسي . والوجه المنشور في أول صفحة من « عشرون رسماً») عنوان لكتاب يتضمن رسوماً بريشة جبران كتبت مقدمته اليس رافائيل نشر في نيويورك سنة (. ١٩١٩ هو وجهها أيضاً ولقد دعوته « نحو اللانهاية» لأنه يمثلها في آخر دقيقة من حياتها هنا وأول دقيقة من حياتها هناك.

وأما من جهة عائلة والدي فإني أستطيع أن أتبجح وأتباهى بثلاثة أو أربعة من الكهان مثلما تباهيتِ وتبجحتِ بكهنة وقسس بيت زيادة !!!! أقرّ لك بميزة واحدة وهي وجود القسس عندكم إن شجرتنا لم تثمر من هذا النوع ! ولكن قد ظهر عندنا

خور و« سقفس» أي خوري ونصف خوري فهل ظهر عندكم من هذا الجنس ؟ ولقد كان هذا الخوروسقفس أو هذا المونسنيور الجبراني يصلي ويبتهل لله ليرجعني إلى حضن الكنيسة الجامعة الرسولية مثلما ارجع الابن الشاطر إلى أبيه !وحضن الكنيسة كما تعلمين يشابه صدر أبينا ابراهيم - الأول لراحة الخطأة والثاني لراحة الأموات . والمسيحي المسكين لا يتملص من هذا حتى يهبط في ذاك وأنا والحمد للسماء لم أكن من الخطأة ولن أصير من الأموات ! بيد أنني أشفق على ابراهيم إجمالاً وعلى صدر إبراهيم خصوصاً

هذا ولا يغرب عن بالكِ أن نصف سكان شمال لبنان من الكهنة والقساوسة والنصف الثاني من أبناء وأحفاد الكهنة ! فهل في بلدكم - وأظنها غزير- (قرية في لبنان تقع بالقرب من مسقط رأس مي زيادة أي من قرية شحتول كانت تؤمها للاصطياف.) مثل ذلك ؟ أما في بلدنا - بشري (مسقط رأس جبران) فمن الصعوبات احصاء عدد الكهان والرهبان!

أجل لنتحدث عن كتاب «دمعة وابتسامة» فأنا لست بخائف! ظهر هذا الكتاب قبل نشوب الحرب بمدة قصيرة . وقد بعثت إليك بنسخة منه يوم صدوره . نعم قد بعثت إليك بنسخة من كتاب « دمعة وابتسامة» يوم صدوره من مطبعة الفنون ولكنني لم أسمع منك كلمة واحدة عن وصولها فتأثرت ولم أزل متأثراً.

أما مقالات « دمعة وابتسامة » فهي أول شيء نشر لي في الجرائد . هي من حصرم كرمي وقد كتبتها قبل « عرائس المروج » بزمن ولقد شاء نسيب عريضة فجمعها واضاف إليها مقالتين كتبتا في باريس منذ ١٢ سنة . سامحه الله ! لقد كتبت ونظمت قبل « دمعة وابتسامة» أعني بين الطفولية والشباب المجلدات الضخام ! ولكنني لم أقترف جريمة نشرها ولن أفعل . وأنا باعث إليك بنسخة ثانية من « دمعة وابتسامة »

مع الأمل بأنك ستنظرين إلى روحها لا إلى جسدها.

أنا من الميالين إلى شارل جيران (شاعر فرنسي له عدة دواوين من الشعر العاطفي الرقيق) ولكنني أشعر أن المدرسة التي ينتمي إليها أو الشجرة التي هو غصن من غصونها لم تكن في الغابة العلوية . إن الشعر الافرنسي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين كان خاتمة لشيء وجد بدلاً من أن يكون بداية لشيء غير موجود - أعني غير موجود في عالم الحواس . ففي عقيدتي أن رودان النحات (وهو المثال الافرنسي المشهور الذي تأثر به جبران (.وكيريار المصور (رسام افرنسي اشتهرت لوحاته بأنها كانت تعتمد على أرضية من الضباب (.وديبوسي الموسيقي (من أشهر مؤلفي الموسيقى ومجدديها في القرن العشرين.) قد ساروا على سبل جديدة فكانوا حقيقة من العظام . ولكن جيران ورفاقه كانوا وما برحوا يسيرون حتى الساعة على السبل التي رسمتها لهم الحالة المعنوية في أوربا قبل زمن الحرب . ومع أنهم يشعرون بجمال الحياة وما في الحياة من الألم والغبطة والمظاهر والأسرار فهم يمثلون مساء عهد بدلاً من صباح عهد آخر . وعندي أن كتاب وشعراء العالم العربي في أيامنا هذه يمثلون ولكن بصورة مصغرة جداً نفس الفكرة ونفس الحالة ونفس العهد.

وعلى ذكر العالم العربي فإني أسألك : لماذا يا ترى لا تعلمّي كتاب وشعراء مصر المسير على السبل الجديدة ؟ أنتِ وحدكِ قادرة على ذلك فماذا يمنعك ؟ أنتِ يا مي من بنات الصباح الجديد فلماذا لا تنبهي الراقدين ؟ إن الصبية الموهوبة كانت وستكون بمقام ألف رجل موهوب . وإني لا أشك بأنكِ إذا ناديتِ تلك النفوس الضائعة الحائرة المستعبدة بقوة الاستمرار أيقظتِ فيها الحياة والعزم والميل إلى الصعود نحو الجبل . افعلي هذا وثقي بأن من يسكب الزيت في السراج يملأ بيته

نوراً – أفليس العالم العربي بيتك وبيتي ؟

أنت تتأسفين لأنك لم تستطيعي الحضور إلى « الوليمة الفنية » وأنا أستغرب أسفك هذا أستغربه جداً أفلا تذكرين ذهابنا سوية إلى المعرض ؟ هل مسيت انتقالنا من صورة إلى صورة ؟ هل نسيت كيف سرنا ببطء في تلك القاعة الواسعة نبحث وننتقد ونستقصي ما وراء الخطوط والألوان من الرموز والمعاني والمقاصد ؟ هل نسيت كل ذلك ؟ الظاهر أن « العنصر الشفاف» فينا يقوم بكثير من الأعمال والمآتي على غير معرفة منا فهو يسبح مرفرفاً إلى الجهة الثانية من الأرض ونحن في غرفة صغيرة نقرأ جرائد المساء . ويزور الأصدقاء البعيدين ونحن نجالس ونحدث الأصدقاء القريبين ويسير في حقول وغابات بعيدة سحرية لم ترها عين بشري ونحن نسكب الشاي في فنجان سيدة تخبرنا عن الاحتفال بعرس ابنتها.

ما أغرب العنصر الشفاف فينا يا مي وما أكثر أعماله المجهولة لدينا . ولكن عرفناه أو لم نعرفه فهو أملنا ومحجتنا . وهو مصيرنا وكمالنا . وهو نحن في الحالة الربانية.

هذا و أنا أعتقد بأنكِ إذا أجهدتِ حافظتكِ قليلاً تتذكرين زيارتنا إلى المعرض فهلا فعلت ؟

لقد طالت رسالتي – ومن يجد لذةً في شيء أطاله.

قد ابتدأت بهذا الحديث قبل نصف الليل وها قد صرت بين نصف الليل والفجر ولكنني للآن لم أقل كلمة واحدة مما أردت أن أقوله عندما ابتدأت . إن الحقيقة الوضعية فينا ذلك الجوهر المجرد ذلك الحلم الملتف باليقظة لا يتخذ غير السكوت مظهراً وبياناً.

نعم كان بقصدي أن أسألك ألف سؤال وسؤال وها قد صاح الديك ولم أسألك

شيئاً . كان بقصدي أن أسألكِ مثلاً ما اذا كانت لفظة « سيدي» موجودة حقيقة في قاموس الصداقة ؟ لقد فتشت عن هذه اللفظة في النسخة الموجودة لديّ من هذا القاموس ولم أجدها .. فاحترت بأمري غير أنني أشعر أن نسختي هي النسخة المصححة - ولكن قد أكون غير مصيب!

هذا سؤال صغير أما السؤالات الكبيرة فسأتركها إلى فرصة أخرى - إلى ليلة أخرى- فليلتي هذه قد شاخت وهرمت وأنا لا أريد أن أكتب إليك في ظلال الليالي المسنة.

وإني أرجو أن يملأ العام الجديد راحتيك بالنجوم.

والله يحفظك يا مي ويحرسك

صديقك المخلص

جبران خليل جبران

«بعد أن ختمت هذه الرسالة فتحت نافذتي فوجدت المدينة متشحة برداء أبيض والثلج يتساقط بهدوء وعزم وغزارة فتهيبت لهذا المشهد الجليل بطهره ونقاوته وعدت بالفكر إلى شمال لبنان إلى أيام حداثتي عندما كنت أصنع التماثيل من الثلج ثم تطلع الشمس فتذيبها.

إني أحب عواصف الثلج محبتي لكل أنواع العواصف . وسأخرج في هذه الدقيقة وأمشي تحت هذه العاصفة البيضاء . ولكنني لا ولن أمشي وحدي.

جبران

■ نيويورك صباح الاثنين ٣٠ أيار ١٩٢١

يا مي يا ماري يا صديقتي

استيقظت الساعة من حلم غريب. ولقد سمعتك تقولين لي في الحلم كلمات حلوة ولكن بلهجة موجعة والأمر الذي يزعجني في هذا الحلم ويزعجني جداً – هو أنني رأيت في جبهتك جرحاً صغيراً يقطر دماً. ليس في حياتنا شيء أدعى إلى التفكير والتأمل من الأحلام. وأنا من الذين يحلمون كثيراً بيد أنني أنسى أحلامي إلا إذا كانت ذات علاقة بمن أحبهم. لا أذكر أنني حلمت في ماضيَّ حلماً أوضح من هذا الحلم لذلك أراني مشوشاً مضطرباً مشغول البال في هذا الصباح. ماذا تعني رنة التوجع في كلماتكِ الجميلة؟ وما معنى الجرح في جبهتكِ ؟ و أيّ بشري يستطيع أن يخبرني مفاد انقباضي وكآبتي ؟

سوف أصرف نهاري مصلياً في قلبي. أصلي لأجلكِ في سكينة قلبي .وسوف أصلي لأجلنا.

والله يباركك يا ميّ ويحرسك

جبران

■ نيويورك ٩ أيار ١٩٢٢

صديقتي الفاضلة ...

تسألينني يا سيدتي ما إذا كنت وحيد الفكر والقلب والروح فبما يا ترى أجيبك ؟ أشعر أن وحدتي ليست بأشد ولا أعمق من وحدة غيري من الناس. كلنا وحيد منفرد. كلنا سر خفي. كلنا محجوب بألف نقاب ونقاب وما الفرق بين مستوحد ومستوحد سوى أن الأول يتكلم عن وحدته والثاني يظل صامتاً. وقد يكون في الكلام بعض الراحة وقد يكون في الصمت بعض الفضيلة.

لا أدري يا سيدتي ما إذا كانت وحدتي بما فيها من الكآبة مظهراً « لهوى بعض شخصياتي» أو برهاناً على عدم وجود شخصية في هذا الكائن الذي أدعوه « أنا» لا لا أدري. ولكن إذا كانت الوحدة عنوان الضعف فأنا بدون شك أضعف الناس.

أما مقالة« نفسي مثقلة بثمارها» فلم تكن « أنة شاعر في ساعة غمّ عابرة» بل « صدى لعاطفة عمومية قديمة مستتبة شعر ويشعر بها الكثيرون» وسيدتي تعلم أن ميلنا إلى سكب ما في أرواحنا في كؤوس الآخرين لأشد بما لا يقاس من الرغبة في الارتواء مما يسكبه الآخرون في كؤوسنا. تلك صفة لا تخلو من الغرور في بعض الأحايين ولكنها طبيعية.

ما أحسن قولكِ« إن كربة الوحدة وتباريحها تشتد وسط الجماهير». هذه حقيقة أولية . فكم مرة يجلس الواحد منا بين أترابه ومريديه فيحدثهم ويجادلهم ويشاركهم بالأقوال والأعمال- يفعل كل ذلك بإخلاص ومسرة ولكن فعله لا يتعدى حدود الذات المقتبسة من عالم المظهر أما ذاته الأخرى ذاته الخفية فتبقى ساكنة مستوحدة في عالم المصدر.

الناس وأنا منهم ميالون إلى الدخان والرماد أما النار فيخافونها لأنها تبهر العين وتحرق الأصابع. الناس وأنا منهم منصرفون إلى درس ثنايا قشور بعضهم بعضاً

أما اللباب فيتركونه وشأنه لأنه لا يقع تحت حواسهم. وكيف يستطيع اللباب أن يظهر إلا بكسر القشرة؟ وليس من الأمور الهينة أن يمزق المرء قلبه ليرى الناس مكنونات قلبه. وهذه هي الوحدة يا سيدتي وهذه هي الكآبة.

قد أسأت التعبير- وبشيء من القصد- عندما قلت لكِ في أواخر الصيف الغابر « منذ ستة أسابيع وأنا أحاول الكتابة إليكِ» كان يجب أن أقول« من ستة أسابيع وأنا أستأجر بعض الناس للاهتمام برسائلي لأن أعصاب يميني لم تكن صالحة للكتابة» ولم أحلم قط بأن لفظة « أحاول» ستتحول إلى مبضع في يد صديقتي. كنت أتوهم أن الأرواح المجنحة لا تسجن في قفص من الألفاظ. وكنت أتوهم أن الضباب لا يتحجر وكنت أتوهم وأتوهم وأجد الراحة والطمأنينة في أوهامي حتى إذا ما طلع الفجر واستيقظت وجدتني جالساً على رابية من رماد وفي يدي قصبة مرضوضة وعلى رأسي اكليل من الشوك ..لا بأس فأنا المخطىء أنا أنا المخطىء يا « مي».

أرجو أن تحقق الأيام رغبتك في السفر إلى أوربا . سوف تجدين خصوصاً في إيطاليا وفرنسا من مظاهر الفن والصناعة ما يسرك ويبهجك. هناك المتاحف والمعاهد وهناك الكنائس القديمة الغوطية وهناك آثار نهضة القرنين – الرابع عشر والخامس عشر وهناك أفضل ما تركته الأمم المغلوبة والأمم المنسية. أوربا يا سيدتي مغارة لص غاوي خبير يعرف قيمة الأشياء النفيسة ويعرف كيف يحصل عليها.

كان بقصدي الرجوع إلى الشرق في الخريف الآتي. ولكن بعد قليل من التفكير وجدت أن الغربة بين الغرباء أهون من الغربة بين أبناء وبنات أمي. وأنا لست ممن يميلون إلى الهيّن ولكن القنوط فنون كالجنون .

تفضلي بقبول تحيتي مشفوعة بأحسن تمنياتي والله يحفظك.

المخلص : جبران خليل جبران

رسائل من : مي إلى جبران

... جبران !

لقد كتبت كل هذه الصفحات لأتحايد كلمة الحب .. إن الذين لا يتاجرون بمظهر الحب ودعواه في المراقص والاجتماعات ينمي الحب في أعماقهم قوة ديناميكية قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألأ السطحي لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تنفجر ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون أن يتمنوها لنفوسهم ويفضلون وحدتهم ويفضلون السكوت ويفضلون تضليل القلوب عن ودائعها والتلهي بما لا علاقة له بالعاطفة. ويفضلون أي غربة وأي شقاء (وهل من شقاءٍ في غير وحدة القلب؟) على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة.

ما معنى هذا الذي أكتبه ؟ إني لا أعرف ماذا أعني به ولكني أعرف أنك محبوبي وأني أخاف الحب. أقول هذا مع علمي أن القليل من الحب الكثير. الجفاف والقحط واللاشيء بالحب خير من النزر اليسير.

كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا. وكيف أفرط فيه ؟ لا أدري.

الحمد لله أني أكتبه على الورق ولا أتلفظ به لأنك لو كانت الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلاً بعد هذا الكلام ولاختفيت زمناً طويلاً فما أدعك تراني إلا بعد أن تنسى.

حتى الكتابة ألوم نفسي عليها لأني بها حرة كل هذه الحرية.. أتذكر قول القدماء من الشرقيين: إن خير للبنت أن لا تقرأ ولا تكتب.

إن القديس توما يظهر هنا وليس ما أبدي هنا أثراً للوراثة فحسب بل هو شيء أبعد من الوراثة. ما هو؟ قل لي أنت ما هو. وقل لي ما إذا كنت على ضلال أو هدى

فإني أثق بك.. وسواء أكنت مخطئة أم غير مخطئة فإن قلبي يسير إليك وخير ما يفعل هو أن يظل حائماً حواليك يحرسك ويحنو عليك.

... غابت الشمس وراء الأفق ومن خلال السحب العجيبة الأشكال والألوان حصحصت نجمة لامعة واحدة هي الزهرة آلهة الحب أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوقون؟ ربما وجد فيها بنت هي مثلي لها جبران واحد حلو بعيد هو القريب القريب. تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء وتعلم أن الظلام يخلف الشفق وأن النور يتبع الظلام وأن الليل سيخلف النهار والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل أن ترى الذي تحب فتتسرب إليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد: جبران.

مي زيادة

obeikan.com

صديقي جبران

لقد توزع في المساء بريد أوروبة وأمريكة وهو الثاني من نوعه في هذا الأسبوع وقد فشل أملي بأن تصلني فيه كلمة منك .

نعم إني تلقيت منك في الأسبوع الماضي بطاقة عليها وجه القديسة حنة الجميل ولكن هل تكفي الكلمة الواحدة على صورة تقوم مقام سكوت شهر كامل ...

لا أريد أن تكتب إلي إلا عندما تشعر بحاجة إلى ذلك أو عندما تنيلك الكتابة سرورا ولكن أليس من الطبيعي أن أشرئب إلى أخبارك كلما دار موزع البريد على الصناديق يفرغ فيها جعبته ! .. أيمكن أن أرى الطوابع البريدية من مختلف البلدان على الرسائل حتى طوابع الولايات المتحدة وعلى بعضها اسم نيويورك واضح فلا أذكر صديقي ولا أصبو إلى مشاهدة خط يده ولمس قرطاسه ...

ولتحمل إليك رقعتي هذه عواطفي فتخفف من كآبتك إن كنت كئيبا وتواسيك إن كنت في حاجة إلى المواساة ولتقوك إذا كنت عاكفا على عمل ولتزد في رغدك وانشراحك إذا كنت منشرحا سعيدا .

١١ آذار ١٩٢٥

مي زيادة

هات وخُذ بين مي وجبران

كتبت له مي تقول :

(.....) في حضورك سأتحول عنك الى نفسي لافكر فيك وفي غيابك سأتحول عن الاخرين اليك لافكر فيك.

سأتصورك عليلا لاشفيك مصابا لاعزيك مطرودا لاكون لك وطنا واهل وطن ثم ابصرك متفوقة فريدا لافاخر بك واركن اليك.

وسأتخيل الف الف مرة كيف انت تطرب وكيف تشتاق وكيف تحزن وكيف تتغلب على عادي الانفعال برزانة وشهامة لتستلهم ببسالة وحرارة الى الانفعال النبيل وسأتخيل الف الف مرة الى اي درجة تستطيع انت انت تقسو والى اي درجة تستطيع ان ترفق لاعرف الى اي درجة تستطيع انت ان تحب.

وفي أعماق نفسي يتصاعد الكشر لك بخورا لانك اوحيت الي ما عجز دونه الاخرون.

أتعلم ذلك أنت الذي لا تعلم؟ أتعلم ذلك أنت الذي لا أريد أن تعلم؟.

وكان تاريخ هذه المقطوعة عام ١٩٢٣. والملاحظ في تلك المفاجأة هذا الحب العظيم الذي كانت تكنه مي لجبران وتمنياتها ان لايعرف وان يعرف في آن معا.

مي

رسالة من جبران

فجاء رد جبران عليها :

في ١ و ٢ كانون الاول ١٩٢٣ :

ما أعذب رسالتك في قلبي ما أحلاها في قلبي يا مي.

أنت معي في هذه الساعة أنت معي يا مي أنت هنا هنا وأنا أحدثك ولكن بأكثر من هذه الكلمات أحدث قلبك الكبير بلغة اكبر من هذه اللغة وأنا أعلم أنكِ تسمعين أعلم أننا أقرب من عرش الله في هذه الليلة منا في أي وقت من ماضينا.

أحمد الله وأشكره .. أحمد الله وأشكره فقد رجع الغريب إلى وطنه وعاد المسافر إلى بيت أمه وأبيه .

أحب صغيرتي غير أني لاادري بعقلي لماذا أحبها.. ولا أريد أن أدري بعقلي يكفي أنني أحبها بروحي وقلبي يكفي انني احبها بروحي وقلبي يكفي إنني أسند رأسي الى كتفها كئيبا غريبا مستوحدا فرحا مدهوشا مجذوبا يكفي أن أسير إلى جانبها نحو قمة الجبل وأن أقول لها بين الآونة والاخرى: أنت رفيقتي انت رفيقتي.

والآن قربي جبهتك ..

والله يباركك .. والله يحرسك.

جبران